بحاق، وتستعمل فى السفر . يَنْفُج : يُكثر ، أى تكثر المأكولات فى السفر فتنفُج به . يُنتج : يولّد . الظّفَر : الفوز بالحاجة . معاقرة الوطن : ملازمة بلد الإنسان . تعقر الفِطَن : تميت القلوب وتبلد الأذهان . قطن : سكن وأقام، فيريد أن الإقامة فى بلد الإنسان تُحَقِّر شأنه وتبلّد خاطره .

[مما قيل فى الأوطان]

قال الشاعر :

أنفِقْ من الصَّبر الجميـــل فإنه ... لم يخش فقراً مُنْفِقٌ من صَبْرِهِ
والمرء ليسَ ببالغٍ فى أرضه ... كالصَّقْر ليس بصائد فى وَكْرِهِ

وأنشد الفَنجديهىّ :

نَقِّلْ ركابك فى الْفَلاَ ... ودَعِ العوالى والقُصُورْ
فمحـــالفو أوطانِهم ... أشبـــاه سكّان القبورْ
لولا التغـــرُّب ما ارتقى ... دُرُّ البحور إلى النُّحورْ

وقالوا : مَنْ لم يصاحب البَر والفاجر، ولم يؤدبه الرخاء مرّة والشدة أخرى ، ولم يخرج من الظِّلّ إلى الشمس ، فلا ترجُه . وتقدم مثل هذا فى التاسعة[1].

وقال أبو العباس الأعْمَى :

مَلِلْتُ حمصَ وملّتْنى فلو نطقتْ ... كما نطقتُ تلاحَيْنا على قَدَرِ
وسوّلت لى نفسى أنْ أفارِقَها ... والماء فى المزنِ أصفَى منه فى الْغُدُرِ
أما اشتفت مِنِّىَ الأيام فى وطنى ... حتى تضايق بى ماعزَّ من وطرى
ولاقضتْ من سواد العين حاجَتَها ... حتى تكرَّ على ما كان فى السَّفَرِ

(١) الجزء الأول صفحة ٣٣٩ ـ ٣٤٠

وقال البحترىّ :

ولَيْسَ اغترابى من سجِسْتَان أننّى عدمت بها الإخوان والدَّارَ والأَهْلاَ[1]
ولكنّنى مالى بها من مُشاكلٍ وإنَّ الغريب الفَرْدَ مَنْ يعدَم الشَّكْلا

ولأبى الفتح البستى عفا الله عنه :[2]

مَاأَنْصَفَتْ بغدادُ حين توحَّشت لنزيلها وهى المحلّ الآنَسُ
لم يَرْعَ لى حقَّ القرابة بُحْتُرٌ[3] فيها ولا حقَّ المروءة فارسُ[4]

وتعقّب عليه المعرّى فى هذا فقال فى أبى القاسم علىّ بن المحسّن التّنوخىّ القاضى :

ذمَّ الوليدُ ولم أذُمَّ جوارَكُمُ فقال ما أنصفتْ بغدادُ حُيّيتا[5]
فإن لقيتُ وليدا والنوى قُذُفٌ[6] يوم القيامة لم أعْدِمه تبكيتا
أحسنت ما شئت فى تأنيسِ مغتربٍ ولو بلغت المدى[7] أحسَنْتَ ماشِيتا

وقال أبو الفتح البستىّ[8] :

وما غُرْبَةُ الإنسان فى شُقّة النّوى ولكنّها والله فى عدم الشَّكْلِ

---

(١) ديوانه ٢٦٢٩ (عن الشريشى) .
(٢) كذا فى الأصول ، والصواب أن البيتين للبحترى ، من قصيدة يمدح فيها على بن يحيى المنجم فى ديوانه ١١٣٣ ، وهما أيضا فى شرح البطليوسى على سقط الزند ١٦٤١ .
(٣) ط : « مجتر » ، تصحيف ، وفى الديوان : « طيىء » .
(٤) الديوان : « ولاحق الصداقة » .
(٥) سقط الزند ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، وفيه : « حوشيتا » .
(٦) قذف ، أى بعيدة .
(٧) سقط الزند : « المنى » .
(٨) يتيمة الدهر ٤ : ٣١ ، ونسبهما إلى أبى سليمان الخطابى

وإنى غريب بين بُستَ وأهلِها وإن كان فيها أُسْرَتِي وبها أهلِي

ولأبى بكر بن بقىّ :[1]

أقمتُ فيكم على الإقتار والعَدِم لو كنت حرًّا أبيَّ النَّفس لم أُقِمِ[1]
فلا حَدِيقتكُمْ يُجْنَى لها ثَمرٌ ولا سماؤكمُ تَنهَلُّ بالدِّيَمِ
أنا امرؤٌ إن نَبَتْ بى أرضُ أندلسٍ جئت العراق فقامت لى على قدمِ
ما العيش بالعلم الإحالة[2] ضعفَت وحُرفةٌ وُكِلَتْ بالقُعْدِدِ الهرمِ

وللفقيه أبى محمد بن حزم :

ولى حول أكناف العراق صَبابةٌ ولاغَرْوَ أن يستوحش الكلِفُ الصَّبُّ
فإن يُنزل الرحمن رَحْلِيَ بينهمْ فحينئذ يبدو التأسّف والكَرْبُ
هنالك يَدْرِى أنّ للبعد قصةً وأنّ كساد العلم آفتُه القُرْبُ

* * *

قوله: أجَلْت، أى صرّفت . قداح : سهام . الاستشارة : مشاورة غيره فى رأيه ، وإجالة القداح تأتى فى الثالثة والأربعين ، واستعار هنا لمن يستشيره فى أمر السفر قداحًا، فإن وافق رأيَه فكأنّه خرج له على السهم: «افعل» وإن خالفه فكأنه خرج عليه «لاتفعل» . اقتدحت : ضربت . زِنَاد : ما يكون فيه النار . الاستخارة : طلب الخيرة من الله تعالى . استجشت : حَرّكت . جأشا : نفسا، وهى فى سكونها عن السفر كالحجر فلا تتحرّك للسفر . أصعدت : طلعت . خيّمت : أقمت .

---

(١) نفح الطيب ٣ : ٤٨ ٤ .
(٢) النفح : « حِيلةٌ » ، « البرم » .

الرَّمْلة : بلدة بالشام ، سَمَّتها العرب بالرَّملة لمّا غلب عليها الرمل ، وهى من كُور فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا ، وكانت لدّ[١] مدينة فلسطين القديمة ، فلما وَلِيَ الخلافة سليمان بن عبد الملك ابتنى مدينة الرّملة ، وخرّب لدّ ، ونقل أهلُ لدّ إليها ، فصارت الرملة مدينه فلسطين .

ألقيت : تركت . الرِّحلة : الارتحال ، وكنى بإلقاء العصا عن الإقامة بعد أن تهيّأ .

أم القرى : مكة . وكنا نوينا ترك ذكر مكة لشهرتها ، ثم وجدنا شيخنا ابن جُبير قد ذكر فيها أشياء قَلَّ مَنْ يضبطها ، فأثبتناها إعلاماً لمن أحبّ استطلاعها ، وتبرّكا بذكر البيت الشريف أعزه الله تعالى .

[ذكر مكة ومعالمها]

قال شيخنا[٢] : مكة بلد قد وضعها الله تعالى بين جبال محدِقة بها ، وهى فى بطن وادٍ ، مدينة كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب :

باب المعلّى يخرَج منه إلى الجبّانة بالموضع الذى يعرف بالحجُون عن يسار المارّ إليها جبلٌ فى أعلاه ثنيّة ، عليها علَم يشبه البرجَ منها إلى العمرة ، وتعرف الثنيّة بكَدَاء ، وهى التى جعلها حسّان موعد خيل الإسلام فى قوله :

* تُثيرُ النَّقْع موعِدُها كَدَاء[٣] *

ومنها دُخِلَتْ مكة يوم الفتح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادخلوها من حيث قال حسان » .

---

(١) لد ، بالضم والتشديد ، ذكرها ياقوت وقال : « قرية قرب بيت المقدس ، من نواحى فلسطين » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى ، المعروف بابن جبير ، صاحب الرحلة المعروفة باسمه .

(٣) ديوانه ٤ ، وصدره :

* عَدِمْنَا خَيلنا إنْ لم تَرَوْهَا *

والحجون هو الذى قال فيه الحارث بن مُضاض :

كأنْ لم يكُنْ بين الحجُون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكَّة سامرُ[1]

وعن يسار المارّ إليها جبل ، وفى جبّانة الحجُون مدفن جماعة من الصّحابة دُثِرت اليومَ قبورهم ، وفيها بقيّة علم ظاهر ، وهو موضع خشبة عبد الله بن الزبير ، كان فى موضعه بناء مرتفع ، فهدَمَهُ أهلُ الطائف غيرةً منهم على ما كان يجدّد من لعنة الحجاج صاحبَهم . وعن يمينك إذا استقبلتَ الجبّانة مسجد فى مَسِيلٍ بين جبلين ، وهو الذى بايعت الجنّ فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى باب الحجُون طريق الطائف والعراق ، والصُّعود إلى عرفات ، والباب بين الشرق والشمال مائلا إلى الشرق[2].

الباب الثانى: باب السفلى[3] إلى جهة الجنوب، عليه طريق اليمن ، ومنه دخل خالد بن الوليد ، يوم الفتح .

الباب الثالث : باب العُمرة يعرف بالباب الزاهر، عليه طريق المدينة والشأم وجُدّة ، وهو غربىّ ، ومنه يُخرَج إلى التَّنعيم ،وهوَ على فرسخ من مكة ، وهو أقرب ميقات للمعتمرين ، وطريقه حسن ، فيه الآبار العذبة المسماة بالشُّبَيكَة .

وعلى ميل من مكة فى طريق التَّنعيم يُلْفَى مسجد بإزائه حَجَر كالمصطبة ، يعلوه حجر آخر مسند ، فيه نقش داثر ، يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قعد عليه مستريحاً عند مجيئه من العمرة، يمسح الناس خدودهم به تبرّكا. وبعده بفَلْوة على

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٨ من قصيدة، وبعده فى ابن جبير:

بلى نَحْنُ كنَّا أهلَها فأبادنا صروفُ اللَّيالى والجُدود العواثرُ

(٢) رحلة ابن جبير : « إلى الشرق أميل » . (٣) ابن جبير : « المسفل » .

يسار الطريق قبر أبى لهب وامرأته ، قد علاهما جبلان عظيمان من الصَّخْر لرجم الناس على قديم الدهر .

وعلى قدر ميل يُلفَى الزاهر، وهو مبنىٌّ على جانبي الطريق ، يحتوى على دارٍ وبساتين لأحد المكيّين ، وفيه مكان مستطيل ، عليه كيزان الماء ، ومراكن مملوءة ، وهى القصارِى للشرب والطّهور ، وفيه منفعة كبيرة للمعتمرين .

وعلى جانبي الطريق فى الزاهر أربعة أجْبال : جبلان ، من هنا وجبلان من هنا ، يُذكر أنها التى جعل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها ، ثم دعاها عند قوله : ﴿ رَبِّ أرنى كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾[1] .

وعند إجازتك بالزّاهر تمرّ بالوادى المعروف بذى طُوَى ، كان ابن عمر رضى الله عنهما يغتسل فيه عند دخوله مكة ، وفيه نزل النبيُّ عليه الصلاة والسلام عند دخوله ، وفيه مسجد إبراهيم عليه السلام ، وفيه آبار تعرف بالشُّبيكة . ثم تخرج من الوادى إلى أعلام ، وهى أحجار موضوعة بين الحِلّ والحرم ، كالأبراج المصفوفة ، فداخلُها إلى جهة مكة حَرَم ، ووهى كالأبراج ، وآخذةٌ من أعلى جبل ، يعترض عن يمين الطريق فى[التوجّه][2] إلى العُمرة ، وينشق الطريق إلى جبل عن يساره ، وهما ميقات المعتمرين ، [وفيها مساجد مبنية بالحجارة][2] وخارجها[3] بنحو غَلْوَتَيْن مسجد عائشة رضى الله عنها .

ومن جبال مكة جبل أبى قُبيس ، وهو على الحرَم فى الجهة الشرقية يقابل الحجر الأسود ، فى أعلاه مسجد عليه سطح يشرف على مكة ، ويُظهر حسنَها وحُسْنَ الحرَم واتساعه وجمال الكعبة ، وهو مستودَع الحجر الأسود من الطوفان ، حتى أدّاه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وهو أحد أخشَبَىْ مكة ، والأخشب الثانى المتصل بقُعَيْقِعان فى الجهة

---

(١) سورة البقرة ٢٦٠.
(٢) من رحلة ابن جبير .
(٣) الرحلة : « خارج هذه الأعلام » .

الغربيّة ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر .

ومن جبالها حراء ، على مقدار فرسخ ، ومشرف على منًى ، وهو مرتفع فى الهواء ، كان متعبَّد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى اهتزّ تحته ، فقال : اسكن حراء ، فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيدان ، لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وفيه نزلت أول آية من القرآن ، وهو آخذ من المغرب إلي الشمال ، وعلى طرفه الشمالىّ جبّانة الحجُون المتقدمة .

ومن جبالها جبل ثَوْر ، وهو فى الجهة اليمانية على فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى مقربة من الغار قبة جبريل ، وهى عمود منقطع من الجبال ، قد قام شبه الذراع المرتفعة مقدار نصف القامة ، وانبسط من أعلَى شبه الكفّ ، كأنّه قبّة مبسوطة ، يستظلّ تحتها نحو العشرين رجلا ، ومن مكة إلى مِنًى نحو خمسة أميال .

ومنًى مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط ، وقد خربت اليوم إلاّ منازل يسيرة محدَثة للنزول ، كان الطريق إليها الميدان اتساعاً وانفساحاً . وأوّل مايلقى المتوجّه إليها بقربها مسجد البَيْعة التى عقدها العباس للنبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار ، ثم يُفْضِى بها إلي جَمْرة العقبة ، وهى أوّل منًى وعليها مسجد ، وبها عَلَمٌ منصوب شبه أعلام الحرَم المذكورة ، يجعله الرامى عن يمينه مستقبلاً مكة ، ويرمى بها سبعَ حصيات يوم النحر أثر طلوع الشمس ، ثم ينحر أو يَذْبَح ، ويحلّق أو يُقصّر ، ومنًى كلّها مَنْحَر ، ويحلّ له كلّ الأشياء إلا النساء ، وبعدها الجمرة الوسطى ، وبها أيضا عَلَم ، وبين الجمرتين قدر غَلْوة ، وبعدها بمقدار غلوة الجمرة الأولى التى ترمى وقت الزوال ثانى يوم النّحر بسبع حَصَيات ، وفى الوسطى بسبع ، وفى جمرة العقبة بسبع ، فتلك إحدى وعشرون حَصاة ، ويُفْعَل ذلك فى ثالث يوم النحر ، فتلك اثنتان وأربعون حَصاة ، وسبع تقدّمت يوم النحر ، فتكمل تسع وأربعون حَصاة .

وفى أثر ذلك ينفضّ الحاجّ إلى مكة ، وعند الجمرة الأولى يُلْفَى مجرى الذَّبيح عليه السلام ، وفى موضع المجرى حَجَرٌ ملصق بجدار فيه أثر قَدَم صغيرة ، يقال إنها أثر قدمه ، عند تحرّكه لأَنَ له الحجر إشفاقاً ، فيقبّله الناس ويلمسونه تبرّكا به .

ومسجد الخيف آخر مِنًى ، وهو متّسع الساحة ، كأكبر ما يكون من الجوامع ، وصومعته فى رحبة المسجد ، وله فى القبلة أربع بلاطات ، وهو مسجد مشهور البركة ، ومن مِنًى إلى المزدلفة نحو خمسة أميال ، والمزدلفة تسمى المشعر الحرام وجمعاً فلها ثلاثة أسماء . ووادى محسّر حدٌّ بين المزدلفة ومنًى . والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح حولها صهاريج للماء ، وفى وسط البسيط حلَق فى وسطها قبّة ، فى أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين ، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه عند مبيتهم بها ، وبين المزدلفة وعرفات أزيد من خمسة أميال .

وعرفات بسيط من الأرض [على] مدّ البصر ، لو حُشِر الخلائق فيه لوسعهم ، تحدِقُ به جبال كثيرة . وفى آخر البسيط جبل الرّحمة ، وهو موقف الناس ، والعلَمان قبله ، فما أمامهما إلى عرفات جبل ، وما دونهما حَرَم .

وجبل الرحمة منقطع عن الجبال ، قائم فى البسيط ، فهو كلُّه حجارة . وكان صعبَ المرتقى ، فأحدثوا فيه من أربع جهاته أدراجاً وطيئة يصعد فيها بالدوابّ الموقرة . وفى أعلاه قبّة تنسب لأم سلمة رضى الله عنها ، وفى وسطها مسجد يحدِق به سطح فسيح السّاحة جميل المنظر ، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه ، فيشرف منه على بسيط عرفات ، وفى أسفله عن يسار القبلة دار عتيقة البنيان ، فيها غُرَف ، لها طِيقان تنسب إلى آدم عليه الصلاة والسلام . وعن يسارها مسجدٌ صغير . وبمقربة من العلمين مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بقىَ منه

الجدار القبلى يخطب فيه الخطيب يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر ، ثم يقف الناس بعد جمعهم الظّهر والعصر باكين داعين متضرّعين ، حتى يغيب قُرْص الشمس ، ثم يدفع الإمام المالكىّ بالناس بالنّفْر دفما ترتجّ منه الجبال ، فيصلُّون بمزدلفة المغرب والعشاء الآخرة ، فيبيتون بها ، والدنيا كلها شموع مُسْرجَة ، فإذا صلّوا الصبح غدْوة النحر وقفوا داعين .

ومزدلفة كلّها موقف إلا وادى محسّر ، فإن فيه تقع الهَرولة إلى منًى ، فإذا بلغوا منًى رموا بها جمرة العقبة .

ثم يَنْفِر الناس إلى البيت المكرّم إلى طواف الإفاضة ، وهو كمال الحجّ .

وأما البيت المكرّم فهو قريب من التربيع ، له أربعة أركان : ركن ينظر إلى الشرق وفيه الحجرَ الأسود ، ومنه ابتداء الطّوَاف. يبعد الطائف عنه قليلاً ، والبيت عن يساره ، ثم يُلفَى بعد ذلك فى طوافه الرّكن العراقىّ ، وهو ناظر إلى الشمال . ثم الركن الشامىّ ، وهو ناظر إلى المغرب ، ثم الركن اليمانىّ ، وهو ناظر إلى الجنوب ، ثم يعود إلى ركن الحجر الأسود ، وذلك شوط واحد .

وباب البيت فى السَّفح الذى بين ركن الحجرَ والركن العراقىّ ، وهو قريب من الحِجْر بعشرة أشبار ، وما بين الحِجْر والباب يسمَّى الملتَزم ، وهو موضع استجابة الدعاء ، ويرتفع الباب من الأرض أحد عشر شبراً ونصفا ، والباب من فضّة ، مذهّب بديع الصَّنْعة ، يستوقف الأبصار حسنا ، وعُضادتاه كذلك ، وعلى رأسه لوحُ ذهب خالص إبريز فى سعة نحو شبرين ، وله نقّارتا فضة ، كبيرتان يتعلّق عليهما قفل الباب ، والباب ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وغِلَظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار ، وداخل البيت مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه كلّها رخام مجزّع ،

قد قام على ثلاثة أعمدة من السّاج ، مفرطة الطول ، بين كلّ عمود وعمود أربع خُطاً ، ودائرة البيت كلّه من نصفه الأعلى مطليٌّ بالفضة المذهبة ، يُخَيَّل إليك أنها صفيحة ذهب لغلَظها بالجوانب الأربع .

وللبيت خمسة مصابيح ، وعليها زجاج عراقيٌّ بديع النقش ، أدرجت فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوأ ، ويُلفِي الداخل من الباب عن يساره ركن الحجر الأسود وباب الرحمة ، هو الذى يصعد عليه إلى السطح .

والمقام حجر مغشًّى بالفضة ، ارتفاعه ثلاثة أشبار ، وسعته شبران ، أعلاه أوسع من أسفله ، وآثار القدَمين والأصابع فيه ، صُبّ لنا فيه ماء زمزم ، فشربناه منه .

ومن الباب إلى الركن العراقىّ حوض طوله اثنا عشر شبرا وعرضه خمسة أشبار ، وارتفاعه شبر ، هو علامة موضع المقام ، وهو مصبّ ماء البيت .

وموضع المقام الذى يصلَّى فيه ما بين الباب والركن العراقىّ ، وموضع المقام قبّة حديد موضوعة إلى جانب قبّة زمزم ترفع فى أشهر الحجّ ، وتزال قبة الخشب ، لأنها أجمل ، لازدحام الناس . ومن ركن الحجر إلى الركن العراقىّ أربعة وخمسون شبراً ، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يَتطامن لتقبيله ، والقصير يَتطاول له .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام : سود وحمر وبيض ، تتّسع عن البيت مقدار تسع خطاً ، وسائر الحرم مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

والحِجْر ستة أذرع وهو الذى تركته قريش من البيت ، وعليه جدار دوره تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وسبعون شبرا من داخل الدويرة ، ودور جداره كلّه مجزّع بديع الإلصاق من الرخام ، وهو مفروش بالرخام المجزّع البديع التفاريع والتقاطيع ، فمرآه عجيب .

والحرم له ثلثمائة سوار من الرخام ، وذرْع الحَرَم فى الطول أربعمائة ذراع ، وفى العرض ثلثمائة ذراع ، فتكسيره ثمانية وأربعون مرجعا ، وله تسع صوامع وتسعة عشر باباً ، أكثرها مفتّح على الأبواب ، منها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وهو أكبرها ، وعليه يُخْرَج إلى السعى بين الصفا والمروة . وللصفا أربع عشرة درجة ، وللمروة خمسة ، وما بين الصفا والمروة ميل ، وهو اليوم سوق جميل ، يجمع الفواكه بمكّة وحوانيت الباعة يمين وشمال فلا يكاد الساعون يخلصون للسعى لكثرة الزحام .

وقبّة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، منها إليه أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض وتنور البئر فى وسطها من رخام دوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلَظه شبر ، وعمقه إحدى عشرة قامة ، وعمق الماء سبع ، وباب القبة ناظر إلى الشرق .

ثم ذكر فى البيت وما يتصل به من البئر من ذلك غرائب من صنع الرخام والنقوش وغير ذلك أشياء لا يسع كتابنا ذكرُها ، فلنقتصر على هذا القدر [1] .

* * *

فعصَفَتْ بى ريحُ الغَرامِ ، واهْتَاجَ لى شوقٌ إلى البيت الحرَام ؛ فزَمّتُ ناقتى ، ونبذتُ عُلِقى وعَلاَقَتِى

وقُلتُ لِلاَئمى أَقصِر فإنِّى سأختَارُ المَقَامَ عَلَى المُقامِ

وأنفِقُ ماجمعتُ بأَرْضِ جَمعٍ

وأسْلُو بالحَطِيمِ عن الحُطَامِ

ثمَّ انتظمْتُ مَعَ رُفْقَةٍ كنُجومِ اللَّيْل ، لَهُمْ فى السَّيْر جَرْيَةٌ

(١) رحلة ابن جبير صفحة ٨٢ وما بعدها ، مع تصرف .

السَّيْلِ ، وإلى الخيرِ جَرْىُ الْخَيْل ؛ فلم نَزَلْ بين إدْلاَجٍ وتأويب ، وإيجافٍ وتَقْريب ، إلَى أنْ حَبَتْنَا أيْدِى الْمَطَايَا بالتُّحفة ، فى إيصالنا إلى الْجُحْفَةِ ؛ فَحللْناَها مُتَأهِّبين لِلإحْرَام ، مُتبَاشِرِينَ بإدْرَاكِ الْمَرَامِ ، فَلَمْ يَكُ إلاّ أن أنَخْنَا بِهَا الرَّكائب ، وحَطَطْنَا الْحَقَائب ، حتّى طَلَع عَلَيْنَا مِنْ بين الْهِضَاب ، شَخْصٌ ضاحِى الإهَاب ؛ وهو يُنَادِى : يا أهل ذا النادِى ، هَلُمَّ إلى ما يُنْجِى يَوْمَ التَّنَادِى . فانْخَرَطَ إليْهِ الحجِيجُ وَانْصَلَتُوا ، واحتفُّوا به وأنْصَتُوا . فلمّا رَأَى تَأثُّفَهُمْ حَوْلَه ، واستعْظَامَهُمْ قَولَه ، تَسَنَّم إحْدَى الآكام ، ثم تَنَحْنَحَ مُسْتَفْتِحاً لِلْكَلاَم ، وقال :

* * *

قوله : عصفت ، تحرّكت واشتدّت . الغَرام : الشوق . اهتاج : تحرّك . زمت : شددت زمامها . نبذت : رميت . عُلَقِى : ما يتعلق به ويُمسكه عن إرادته . عَلاَقتى : ما يتعلّق بقلبى . أقْصِرْ : كفّ . المَقام : مقام إبراهيم عليه عليه السلام . المُقام : الإقامة . وجَمْع : اسم المزدلفة ، سمِّيت بذلك لاجتماع الناس فيها . الحطيم : حَجَرٌ بمكة . الحُطام : كسب الدنيا . انتظمتُ : ارتفقت . كنجوم الليل ، أى هم أشراف وأهل أحساب . جَرْية : انصباب . الإدْلاج : سَيْر الليل . تأويب : سَيْر النهار . إيجاف : إسراع . تقريب : جَرْىٌ متقارب . حبتْنا : أوصلتنا وأعطتْنا . التُّحفة : الهديّة . إيصالنا : توصُّلنا .

الجُحفة ميقات أهل الشأم ومصر والمغرب ، وبينها وبين البحر ثمانية أميال .

حللناها : نزلنا فيها . الإحرام : الدخول فى الحَرَم . متباشرين : يبشِّرُ بعضُنا بعضاً . بإدراك المرام : بلوغ الحاجة . أنخنا الركائب : بركنا الإبل

بالأرض . حططنا الحقائب : أنزلنا الأحمال عن ظهورها . الإهاب : الكُدَى، واحدتها هَضْبة . ضاحى الإهاب : بارز الجلد ، أى ثوبه خَلَق لايستره . النّادِى : المنزل . هلّم ، أى أقبلوا . يوم التّنادى ، أى يوم البعث لاجتماع الناس فيه ، أو لأنه ينادى للحساب . انخرط : اندفع بسرعة . الحجيج : اسم لجماعة الحجّاج . انصلتوا : خرجوا إليه مسرعين . احتَفُّوا : استداروا : وأنصتوا : سكتوا . تأثّفهم : اجتماعهم وثبوتهم حتى صاروا له كالأثافىّ للقِدْر . استطعامهم قوله : استدعاءهم كلامه . تسنّم : ارتفع عليها ، وأصل « تسنّم » ركب البعير ، الآكام : الكُدَى .

* * *

يامَعْشَرَ الحُجّاج ، النّاسِلينَ من الفِجاج ، أَتَعْقِلُونَ مَاتُواجِهُون ، وإلَى مَنْ تَتَوَجَّهُون! أَمْ تَدْرُونَ عَلَى مَنْ تَقْدَمونَ ، وَعَلاَمَ تُقْدِمونَ ! أَتَخَالُونَ أَنَّ الحجَّ هُوَ اختيارُ الرَّواحِل ، وَقطْعُ الْمَرَاحِل، واتّخاذ الْمَحامِل ، وإيقَارُ الزَّوامِل ! أم تَظُنُّونَ أَنَ النُّسُكَ هُوَ نَضْوُ الأَرْدَانِ ، و إنْضاءُ الأَبْدَان ، وَمُفَارَقَةُ الْولْدانِ ، والتَّنَائى عن الْبُلْدَانِ ؛ كَلاَّ واللهِ ، بل هُوَ اجْتِنَابُ الْخَطِيّة ، قبل اجْتِلاَب الْمَطِيّة، وإخْلاَصُ النِّيَّة ، فى قَصْدِ تِلْكَ الْبَنِيَّة ، وإمْحَاضُ الطَّاعَة ، عِنْدَ وُجْدَانِ الاسْتِطَاعَة ، وإصْلاَحُ الْمعامَلاَتِ ، أمام إعمالِ اليَعْمُلات !

* * *

الناسلين : المسرعين . الفِجاج : الطرق . وتعقلون : تفهمون . تواجهون : تَسْتَقبلون بوجوهكم ، يريد البيت . إلى مَنْ تتوجهون : تقصدون . الرواحل :

الإبل . المراحل : المواضع يُرحل إليها وينزَل فيها . المحامِل: آلات من خشب يركب عليها ، واحدها محمَل ، يقال : إن الحجّاج أوّلُ من أحدثها ، ولذلك قال الشاعر :

أوّلُ عبدٍ صنع المحاملا أخزاه ربّى عاجلا وآجلا

قوله : لزوامل : جمع زاملة ، وهى البعير وغيره من الدوابّ يحمَل عليها الطعام. وإيقارها : رفع الأوقار عليها ، وهى الأحمال ، والوِقْر : الحِمْل . النسك : التعبّد ، نَضْو الأردان ، تجريد المخيط من الثياب . التنائى : التباعد . اجتناب بُعْد ، واجتنبته : بعدت عنه وتركته . الخَطِيّة : الذنب ؛ يريد أن أوّل مايجب على الحجاج أن يقدّموا التوبة . والبنيّة ، هى الكعبة . إمحاض : إخلاص . وُجْدان : إصابة . الاستطاعة : القدرة على الشيء ، وهى شرط وجوب الحج . المعاملات : الأفعال التى يتعامل بها الناس بينهم من المبايعات وغيرها ، وأراد إصلاح فعل العبد بينه وبين ربه . إعمال اليَعْمُلات : استعمال الإبل للمشى ، واليَعْمُلة : الناقة تعمل كثيراً فى المشى .

* * *

فوالّذى شَرَعَ المناسِكَ للنَّاسِك ، وأرْشَدَ السَّالِكَ في اللّيْل الحالِك ، ما يُنْقِي الاغتِسَالُ بالذَّنُوبِ ، مِنَ الانغماس فى الذُّنوب ، وَلاَ تَعْدِلُ تَعْرِيَةُ الأجْسَام ، بِتَعْبِئَةِ الأجْرَام ، وَلاَ تُغْنِي لِبْسَةُ الإحْرَامِ ، عَنِ المُتَلَبِّسِ بالحَرَامِ ، ولا يَنْفَعُ الاضطِباع بالإزار ، مَعَ الاضْطِلاَعِ بالأوْزَارِ ، ولا يُجْدِى التَّقَرُّبُ بالحَلْق ، مع التّقلُّبِ فى ظُلَمِ الخُلْقِ ، وَلاَ يَرْخَصُ التَّنَسُّكُ فى التَّقْصِير ، دُونَ التَّمَسُّكِ بالتَّقْصِيرِ ، وَلاَ يَسْعَدُ بِعَرَفَةَ ، غَيْرُ أَهْلِ المَعْرِفَةِ ، ولا يَزْكُو بالخَيْفِ ، مَنْ يَرْغَبُ فى الحَيْفِ ، وَلاَ يَشْهَدُ المقامَ ،

إلاَّ من اسْتَقَام ، وَلاَ يَحْظَى بِقَبُول الحَجّة ، مَنْ زَاغ عَن المحجّة ، فرَحِمَ اللهُ امْرَأً صَفـــا ، قَبْلَ مَسْعَاهُ إلى الصّفَا ، وَوَرَدَ شَرِيعَةَ الرِّضَا ، قَبْلَ شُرُوعِهِ على الأَضَا ، ونَزَعَ عن تَلْبِيسِهِ ، قَبْلَ نَزْعِ مَلْبُوسِهِ ، وفاضَ بمعروفِهِ ، قَبْلَ الإفاضةِ مِنْ تَعْرِيفِهِ . ثمَّ رَفَع عَقِيرَتَهُ بِصَوْتٍ أَسْمَعَ الصُّمّ ، وكادَ يُزَعْزِعُ الجِبَالَ الشُّمّ .

* * *

شرع : فرض . المناسك : مواضع الذبح والنّحر ، والنّاسك : الذى يأتى بنُسُك ، وهو مايُذْبح أو ينحَر فى الحرم . أرشد السالك : على الطريق للمشى فيها . الحالك : الشديد السّواد . الذّنوب : الدّلو . الانغماس : الغطس ، يريد أن التطهّر لايزيل الذُّنوب . وما أحسن قول الحُلوانىّ فى غلام وسيم أراد النهوض للحج :

يا طالبَ الحجّ وهو ذو صِغَرٍ عجلتَ فاستأْنِهِ إلى الكِبَرِ[1]
إن كنتَ تبغى مثوبةً فعسى تحمِـــل لى قُبلةً إلى الحجرِ
وإن رميت الجمار فارم بهـا كلَّ فؤاد عليـــك لم يطرِ
فقال دعنى وزمزماً فعسى أغسل عن وجنتى دم البشر

قوله : تَعدل ، أى تقاوم وتساوى . الأجرام : الأجسام ، واحدها جِرْم . تعبئة الأجرام : تحمُّل أعباء الذنوب . لبْسة : هيئة اللباس . التلبّس : التعلّق والاختلاط . الاضطباع : الاشتمال والالتحاف ، واضطبع الرجل بثوبه ، إذا أدخله تحت عضُده الأيمن وألقاه على منكبه الأيسر ، والاضطلاع : القيام بها . والأوزار : أثقال الذنوب . يجدِى : ينفع . يَرْحَض : يغسل . التقصير : الأخذ من الشّعر . دَرَن : وسخ . التمسّك : التعلق . التقصير : التضييع ، وترك الاجتهاد ،

(١) الذخيرة لابن بسام ٤/١/٢٢١ ، وهو الشاعر الأندلسى عبد الكريم بن فضال ، المعروف بالحلوانى .

عَرَفة: يوم من أيام الحج ، سُمِّيت بذلك لأن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة، نزل بالهند ، وحوّاء بجُدّة فالتقيا بعَرفة ، فسمِّيَ موضع التقائهما ويوم التقائهما عَرَفة ، وقيل : هى من العرف وهو الصَّبْر ، ورجل عارف ، أى صابر ، فسُمِّيَ الموضع عرفة لصبْر الناس على القيام به للدعاء . وقيل : هى من العَرْف ، وهو الرِّيح الطّيّبة ، لأنها طيِّبة بنسبتها إلى منًى لما بِمِنًى من أقذار الفروث والدماء لأن بِمِنًى يُنحر الهدى . يزكو: يكون نامياً ، والزكاء : النماء والصلاح. والخَيْف : موضع بمكة سمى بالخَيْف ، وهو ما ارتفع من الأرض عن موضع السّيل ، وانحدر عن غِلَظ الجبل . والحَيْف : الظلم . يحظى : يسعد ويظفر . زاغ : مال وخرج . المحجَّة : الطريق المستقيم . صفا : خلص قلبه . مَسْعاه : سعيه وجَرْيه . الصفا : صخرة بمكة . ورد : دخل . شريعة الرّضا : طريقة الخير ، والشريعة فى النهر والغدير : الطريق . يهبط عليه إلى الماء ، وبه سمِّيت شريعة الدين لأنه طريق موصِّل إلى الله تعالى ، فورَد الشريعة ، دخل فيها ، ووصل إلى الماء ، وشرعت الدوابّ فى الماء : دخلت فيه . الأضا : الغُدْران . نزع : زال وكفّ . تلبيسه: تخليطه ، والإفاضة : آخر الطواف . تعريفه : وقوفه بعرَفة . عقيرته : كناية عن صوته يُزعزع : يحرِّك . الشمّ : المرتفعة .

* * *

وأنشد :

ما الحجّ سَيْرُكَ تأْويباً وإدْلاَجا ولا اعْتيامُكَ أجمالاً وأحْداجا
الحجُّ أن تَقْصِدَ البيتَ الحرَام على
تجْرِيدكَ الحجَّ لا تَقْضِي به حاجا
وتَمْتَطِي كاهِلَ الإنصافِ مُتّخِذاً
رَدْعَ الْهوَى هادِياً والحقَّ منْهاجا

وأنْ تواسِيَ ما أُوتيتَ مَقْدُرَةً مَنْ مَدَّ كَفًّا إلي جَدْواكَ محتاجا
فهذه إن حَوَتْهَا حَجَّةٌ كَمُلَتْ وإن خلاَ الحجُّ مِنْهَا كان إخداجا
حَسْبُ المرائينَ غَبْنًا أنّهُمْ غَرَسُوا
وما جَنَوْا ولَقُوا كدًّا وإزعاجَا
وأنَّهُمْ حُرِمـوا حِرْزًا ومَحْمِـدةً
وألحموا عِرْضَهُمْ مَنْ عاب أو هاجَى
أُخَيَّ فابْغِ بما تُبْدِيهِ من قُرَبٍ وَجْهُ الْمُهَيْمِنِ ولاَّجًا وخرّاجَا
فليْسَ تَخْفَى على الرَّحْمَنِ خافيـةٌ
إن أخلص العبدُ فى الطاعات أو دَاجَى
وبادِرِ الْمَوْتَ بالْحُسنَى تقـدِّمُهَا
فمـا يُنَهْنِهُ دَاعِى الموتِ إن فاجـا
واقْنَ التَّواضُعَ خُلْقًا لا تزايـلهُ عَنْكَ اللَّيالِى ولَوْ أَلْبَسْنَكَ التاجا
ولاَ تشِمْ كُـلَّ خالٍ لاَحَ بارقُـهُ
ولَوْ تَرَاءى هَتُونَ السَّكْبِ ثجَّاجا
ما كُلُّ داعٍ بأَهْلٍ أن يُصاخَ له
كَمْ قَدْ أَصَمَّ بنعْيٍ بَعْضُ مَنْ ناجَى
وما اللَّبيبُ سِوَى مَنْ باتَ مُقتنعًا
ببُلغـةٍ تُدْرِجُ الأَيّامَ إدْراجا
فـكُلُّ كُثرٍ إلى قُلٍّ مَغَبَّتُهُ وكُلُّ نازٍ إلى لينٍ وإن هاجَا

* * *

اعتيامك : اختيارك . أحْدَاجاً : جمع حِدْج ، وهو ما يجعل على ظهر البعير ، يُركب عليه . حاجاً : جمع حاجة . تمتطى : تركب . كاهل : مقدّم الظهر . رَدْع : كفّ وردّ . هادياً : دليلا . منهاجا : طريقاً . تواسى : تعطى . جَدْواك : عطيتك . حَوَتْها : جمعتها . إخداجا : نقصاناً . المرائين : المظهرين الخير ، وهم على خلافه . وحَسْب ، بمعنى يكفى . كدًّا : عجلة وشدّة . الإزعاج : ضد السكون والقرار ، وأزعجته : لم تدعه يستقرّ . حرزا : تحصيل ، وأحرزه : جعله تحت حِرْز . ألحوه : أمكنوه من لحمه . العِرْض : مايسبّ من الرجل أو يمدح . هاجى : شاتم وسابّ .

[ذكر المرائين وماقيل فيهم]

ومما قيل فى الرياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكم والشّرْك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا رياء ولا سُمْعة مَنْ يسمع يسمِّع الله به » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ » .

وقال : « مَنْ أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

وقال الشاعر :

وإذا أظهرت شيئاً حسناً ... فليكُنْ أحسنَ منه ماتُسِرّْ

فمُسِرُّ الخير موسومٌ به ... ومُسِرّ الشرّ موسوم بشرّْ

وقال يحيى بن أكثم :

يقول لى القاضى معاذ مشاوراً ... وولّى أمراً فيما يرى من ذَوى الفضلِ

بعيْشِك ماذا تحسبُ المرء فاعلا ... فقلت وماذَا يفعل الذئب فى النّحْلِ !

يدقّ خلاياها ويأكل شهدَها ... ويترك للزّبّال ما كان من فضلِ

وأنشد الفرزدق :

رئيس السوق محمود السَّجايا يقصّر عن مدائحه البليغُ
نسمّيه بيحيى وهـــو ميْت كما أن السليمَ هو اللديغُ
يعاف الوِرْد إن ظمئت حَشَاهُ وفى مال اليتيم له ولوغُ

وللأبيض فى الفقهاء المرائين :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ كالذئب يُدلج فى الظلام العاتِمِ (١)
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتمُ الأموال بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشهبٍ وبأصبغٍ صبغت لَكمُ فى العالمِ (٢)

وله فى نحوه أيضاً :

قل للإمام سنا الأئمة مالكٍ نورُ العيون ونزهةُ الأسماعِ (١)
لله درّك من هُمامٍ ماجـــدٍ قد كنت راعينَا فنعم الرَّاعى
فمضيتَ محمود النّقيبة طاهراً وتركتنا قَنَصاً لشرِّ سباعِ
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزلٍ طاوى الحشى متكفّت الأضلاع
تَشكوك دنيا لم تزل بك بَرَّةً ماذا رفعت بها من الأوضاع !

وفى الإسرائيليات : جاءت عصفورة ، فوقفت على فخّ ، فقالت له : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت ، قالت : فمالى أراكَ بادية عظامُك؟ قال: لكثرة صيامى بدتْ عظامى ، قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى لبست الصوف ، قالت :فما هذه الحبّة فى يدك ؟ قال : قربان إن مرّ بى مسكين ناولتُه إيّاها ، قالت : فإنى مسكينة ، قال : خِذيها فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فصاحت : قِعِى قعى . تفسيره : لا غرنى مراء بعدك أبدا .

(١) نفح الطيب : ٣ : ٤٤٨ .
(٢) ابن القاسم وأشهب وأصبغ ، من فقهاء المالكية .

قال الشاعر :

نعـوذ بالله من أناسٍ نشيَّخُوا قَبْل أن يَشيخُوا
تقوّسوا وانحنوْا رياء فاحذرهمُ إنّهمْ فخوخُ

وكان صائد يصيد العصافير فى يوم بارد ، فكان يذبحها والدموع تسيل ، فقال عصفور لصاحبه : لابأس عليك من الرجل ، أما تراه يبكى ! فقال له الآخر : لاتنظر دموعه ، وانظر ما تصنع يداه .

وراءى بعضهم ثم هتك الله ستره ، فقال :

بينَـا أنا فى توبتى مقبلاً قد شبّهونى بابن دوّادِ
وقد حَملتُ العلم مستظهراً وحـدّثوا عنى بإسنـاد
إذ خطر الشيطان بى خَطْرةً نَـكَسْتُ منها فى أبى جاد

ابن دوّاد : عابد بمكة .

صلّى رجل مراء فقيل له : ماأحسن صلاتك ! قال : ومع ذلك فإنى صائم .

وقال طاهر بن الحسين لأبى عبد الله المروزىّ : كم لك منذ نزلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مَسألتيْن .

وأمر عمر لرجل بكيس ، فقال : آخذ الخيط ؟ فقال عمر : ضع الكيس .

وكتب رجل عند الحسين كتاباً فقال : أتجعلنى فى حلٍّ من تراب الحائط ؟ فقال : يا أخى بلّ ورعك لايتكسّر .

وأخبارهم كثيرة .

* * *

قوله : ابْغِ أى اطلب : القُرَب : أفعال البرّ التى تقرب من الله تعالى ، واحدها قُرْبة . ولأَجاً وخرّاجا ، أى كيف تصرّف فيها . داجى : ساتر العداوة ونافق .

الحسنى : اسم لافعل الحسن ، وتكون الحسنى مؤنثة الأحسن فتلزمها اللام ، كالكبرى والأكبر وبابه ، وتكون الحسنى كالبُشْرى والرُّجعى .

ينهنه يزجر ويكفّ. فاجَى: جاء بغتة ، ولبعضهم:

وهل نحن إلاّ مَرامى السِّهامِ ... ويحفزُها نابلٌ دائبُ
طَرائِدُ تطلبنا النائبات ... ولا بد أن يُدْرِك الطالبُ
حبائلُ للدَّهْر مبثوثةٌ ... يُرَدّ إلى جذبها الهاربُ

وقال آخر فى معناه :

تحارِبنا جنود لاتُجارَى ... ولا تلقى بآساد الحروبِ
تفوّق أسهمًا عن ظهر غيبٍ ... وما أغراضها غير القلوبِ
فأنّى باحتراس من جنودٍ ... مؤيدة تمدّ من الغيوب

وقال ابن جبلة :

وأرى اللّيالى ماطوتْ مِنْ شِرّتى ... زادته فى عِظَتِى وفى إفهامى[1]
وعلمت أنّ المرء من سُنَنِ الردى ... حيث الرميّة من سهام الرامى

قوله : اُقْنَ ، أى اكتسب والتزم . خُلُقاً : طبيعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تواضع لله رفعه الله » .

وقالت الحكماء : كلّ ذى نعمة محسود عليها إلا المتواضع .

وقال عبد الملك : أفضلُ الرجال مَنْ تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، أنصف عن قوّة .

وقال رجل لبكر بن عبد الله : علِّمْنى التواضع ، فقال له : إذا رأيتَ مَنْ هو أكبرُ منك فقُلْ : سبَقنى إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير منى ، وإذا رأيتَ هو أصغر منك ، فقل : سبقته إلى الذُّنوب فهو خير منى .

(١) الأغاني

وقال أبو العتاهية :

يامن تشرّفَ بالدنيا ولذّتِها ... ليس التشرّفُ رفعَ الطّينِ بالطّينِ[1]

إذا رأيت شريفَ القوم كلّهمِ ... فانظر إلى مَلِكٍ فى زىّ مسكين

وقال أبو الفتح البستىّ :

من شاء عيشًا رغيدا يستفيدُ به ... فى دينه ثُمّ فى دنياه إقبالا[2]

فلينظرنّ إلى مَنْ فوقه أدبا ... ولينظرنْ إلى مَنْ دونه مالاَ

قوله : لا تشِمْ ، أى لاتنظر . خالٍ : سحاب . لاح بارقه،ظهر برقه: تراءى: تظاهر . هَتُون : كثير الماء . السَّكْب : الصَّبّ . نجاجا : صبّابًا ، نج الماء يثج نجا ونججتُه أنا . يُصاخ : يسمع . أصمّ : كسب الصمم . والنّعىّ : الخبر بالموت . ناجى : حَدّث . اللبيب : العاقل . بُلْغة : قوت يوم . تدرِج تَطْوِى . كُثْر : كثرة . قُلّ : قلة . مغبّته : عاقبته وآخره ناز : مرتفع،ونزَا الفحل ينزو نزوًا : قفز على الأنثى . لين: فتور . هاج : اضطرب ، ويروى : «وكل نازٍ إلى لين» وهو الصحيح ، أخذه من المَثَل: فلان ينزو ويلين ، يقول: لاتنخدع بما يكون له ظهور فى ملبسه وهيئته ، فقد يخيب ظنك وتقلّ فائدته ، أو يكون مضرًّا لانتفاعاً كما قد ينادى بك ، فتظنّ النداء لمنفعة ، فإذا سمعته فاجأك بمصيبة.وأخذ لفظ « كم قد أصمّ بنعى » من قول أبى تمام :

أصمّ بك الناعى وإن كان أسمَعَا ... فأصبح مغْنى الجود بعدك بلقعا[3]

والسابق إلى هذا المعنى جَزْو بن ضِرار ، أخو الشماخ بقوله :

أتانى فلم أسرُرْ به حين جاءنى ... حديثٌ بأعلى القُبّتين عجيبُ

تصامته حتّى أتانى بقيّنةٍ ... وأفرغ منه مخطىء ومصيبُ

وقال المتنبّى :

طوَى الجزيرة لمّا جاءنى خبرٌ ... فزعت منه بآمالى إلى الكذب[4]

(١) ديوانه ٢٧٤ (٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣٠٧

(٣) ديوانه ٣٧٤ (٤) ديوانه ١ : ٨٧ ، ٨٨

حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقه خبرًا شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرَق بِى

أشار بعد ذلك بالبيتين إلى القناعة ، وأن كثير الدنيا مصيره إلى قليل، وقد تقدم أمثال هذا .

وقال أبو تمام :

يا قليلَ البقاء فى هــذه الدا رِإلى كَمْ يغرّك التسويفُ (١)
عجباً لامرىء يذلّ لذى المـا لِ ، ويكفيه كلّ يوم رغيفُ

ولابن عمران :

عجبًا لنا نبغى الغنَى والفقرُ فى نَيْلِ الغنى لَوْ صحّت الألباب
فيما يبلِّغنى المحــلّ كفايةٌ والفضل فيه تَـكاثرٌ وحسابُ

* * *

قال الرّاوى : فلمّا ألقَحَ عُقْمَ الأفهامِ ، بِسحْر الـكلام ، استَرْوحْتُ ريحَ أبى زيد ، ومادَ بِى الارتيـاحُ إليه أىَّ مَيْـدٍ ، فمـكثتُ حَتَّى اسْتَوْعَبَ نَثَّ حِكْمَتِه ، وانْحَدَرَ مِنْ أَكَمَتِه . ثمَّ دَلَفْتُ إليه ، لِأَتَصَفّحَ صَفَحَاتِ مُحيّاه ، وأَستشِفَّ جَوْهَرَ حُلَاه ؛ فإذا هُوَ الضّالّة الَّتى أَنْشُدُها ، ونَاظِمُ الْقَــلَائِدِ الَّتِى أَنْشَدَها ، فعانقتُه عِنـاقَ اللاّمِ لِلأَلِف ، ونزَّلـتُهُ مَنْزِلَةَ الْبُرْءِ عِنْدَ الدَّنَف . وسألته أن يُلازمَنى فأَبَى ، أو يُزَامِلَنِى فنَبَا ، وقال : آليتُ فِي حَجَّتِى هذه ألاَّ أَحْتَقِب وَلاَ أَعْتَقِب ، ولا أَكْتَسِبُ ولا أنتَسِب ، ولا أرتفقَ وَلاَ أُرَافِق ، وَلاَ أُوافِقَ مَنْ ينافق .

(١) لم أجدها فى ديوانه.

ثم ذهب يُهَرْوِل ، وغادَرَنِى أُوَلْوِل .

فلمْ أزَل أَقْرِيهِ نظرى ، وأودّ لو يَمْشِى عَلَى ناظِرِى ، حَتَّى توقَّلَ أحَدَ الأطواد ، وَوَقفَ للْحجِيجَ بالمِرْصاد .

فلمّا شاهَدَ إيضاعَ الرَّكبان فى الكثبانِ ، وَقَّعَ بالبنَان على البنان .

* * *

قوله : فلما ألقح عُقْم الأفهام ، أى جعل العقيم منها حاملاً بالعلم والفهم . استروحْت : شممت فوجدت رائحته . مادَ : مال . الارتياح : الطّرب . مكثت : أقمت . أستوعب : أستوفى : نثّ : نشر . أكمته : كُدْيته[1] . دلفت : أسرعت . أنصفّح : أنظر . صفحات محيّاه : جهات وجهه . أستشفّ : أبالغ النظر فيها . جوهر حُلاه : خلقة صفاته . أنشدها : أطلبها . القلائد : جمع قلادة ، وهى ما يُجعل فى العنق من سلوك الجوهر وغيرها ، ومنه تقليد البُدْن بمكة ، وتقلّدت بالسيف : جعلته فى عنقى ، وقلّدتك الأمر : جعلتُه فى عنقك ، وناظم القلائد : جاعلها فى خيطها ، ويعنى بالقلائد مانثر من وعظه ، وأنشده من شعره — وصدق لَعَمْرِى إنّ كلامه المنظوم والمنثور أبْهى من القلائد فى أعناق الخرائد .

وقوله : عناق اللام للألف ، أمّا بخط المغرب فلا معانقةَ بينهما إلا فى الطرَفين ، وربما وقعت فى بعض هذا الخطّ كالصليب ، وفى بعضه لا التقاء بينهما البَتّة ، وإنما يريد صورة لام ألف بالخطّ الكوفىّ ، وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل . وأخذ اللفظ من قول بكر بن خارجة :

يامَنْ إذا قرأ الإنجيل ظلّ له ... قلب الحنيف عن الإسلام منصرفا
رأيت شخصك فى نومى يعانِقُنى ... كما تعانق لامُ الكاتب الألفا

(١) الكدية : الأرض الغليظة .

[مما قيل فى العناق من الشعر]

ونذكر هنا ما يستحسن فى العناق ، قال البحترىّ :

تلك نُعْمٌ لو أنعمت بوصالٍ لشكرنا فى الوصل إنعام « نعمِ »[1]
نسيَتْ موقف الجِمَارِ وشخصا نا كشخصٍ ، أرمى الجمارَ وترمِى

وقال أيضاً :

ولم أنسَ ليلتنا فى العنا قِ لَفّ الصَّبَا بقضيب قضيبا[2]
كما مرّت الريح فى سيرها فطوراً خفوقا ،وطوراً هبوبا

وقال ابن المعتز :

كأنمـا عانقتْ ريحانةٌ تنفَّسَتْ فى ليلها البارِدِ[3]
فلو ترانا فى قميص الدُّجَى حسِبتَنا من جَسَدٍ واحدِ

وقال علىّ بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمّنا بعد هجعةٍ وأدنى فؤادًا من فؤاد معذَّبِ[4]
فبتْنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ من الماء فيما بيننـا لم تسرّبِ

وقال ابن عبدوس الفاسى : سرتُ يوماً إلى ابن الجهم ، فأنشدنى البيتين فى العناق ، فاقتدح زندى لإيراد مثله ، فقلت :

لا وللمنازلِ من نجدٍ وليلَتنا بعيد إذ جسدانا بيننا جَسَدُ
كم رام فينا الكرى مع لطف مسلَكِهِ نوما فما انفكّ لا خدٌّ ولا عضدُ
ما أنصفونى، دعوْنى فاستجبتُ لهم حتى إذا قرّبونى منهمُ بَعُدوا

أخذ هذا البيت من قول الآخر :

أشكو الذين أذاقونى مودّتهمْ حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

(١) ديوانه ١٩٤٠ (٢) ديوانه ١٥٠ (٣) ديوانه ٧٧
(٤) ديوانه ٩٥ (٥) للعباس بن الأحنف ؛ ديوانه ٨٤

وقال أبو نواس :

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ ... إلى أن تردَّى رأسُه بمشيبِ
وبتْنا كغصنىْ بانةٍ عصفتْهما ... مع الصبْح ريحا شمال وجنوب
إلى أن بَدَا ضوء الصباح كأنه ... مبادى نصولٍ فى عذارٍ خضيبِ
فياليلُ قد فارقتَ غير مذمّمٍ ... ويا صبْح قد أصبحتَ غير حبيبِ

قال صالح بن موسى :

لى سيّد ما مثله سيّدٌ ... تصدّتِ الحمّى له فاشتكىَ
عانقته عند موافاتِها ... والأفق بالليل قد احْلَولَكا
فجاءت الحمّى لعاداتها ... فلم تَجِدْ مابيننا مَسْلَكا

ولابن الرومى :

طالما التفّتْ إلى الصبْـ ... ـح لنا ساقٌ بساقِ
فى نقابٍ من ودادٍ ... ولثامٍ من عناقِ

وقال أيضاً :

أعانقها والنفس بعد مشوقةٌ ... إليها وهل بعد العناق تدانِ[1]
وألثم فاها كى تموتَ حَرارتى ... فيشتدّ ما ألْقى من الهيَمَانِ
كأنّ فؤادى ليس يشفى غليلَه ... سوى أن يُرى الروحانِ ممتزجان

وقال ابن المعتز :

يارُبّ فتيانٍ صحبتهمُ ... لايرفعون لسَلْوة قلبا
لو تستطيع قلوبهم نفذَتْ ... أجسامهم فتعانقتْ حُبّا

---

(١) أمالى القالى ١ : ٢٢٦

وقال ابن رشيق :

ومهفهفٍ يحميه عن نظر الورَى ... غيرانُ سُكْنَى الموت تحت قِبابِهِ[1]
فلثمتُ خدًّا منه ضرّم لوعتِي ... وجعلت أُطفِئُ حرّها برُضابه
وضممتُه للصَّدر حتى استوهبْت ... منى ثيابى بعضَ طِيب ثيابِهِ
فكأنّ قلبي من وراء ضلوعِه ... طرباً يخبِّر قلبه عمّـــا به

وقال ابن لُبّال :

ما كنت أحسب قبل رؤية وجهِه ... أن البدورَ تدور فى الأغصانِ
غازلتُـــه حتى بَدا لى ثغرُه ... فحسبتــه دُرًّا على مرجانِ
كم ليـــلةٍ عانقته فكأنّما ... عانقت مِنْ عِطْفَيْهِ غُصن البانِ
يطفى ويلعب عند عَقْدِ سواعدِى ... كالمهر يلعب عند ثَنْيِ عِنانِ

وقال آخر :

مشتاقةٌ طرقَتْ فى الليل مشتاقَا ... أهلاً بمن لم تَخُنْ عهداً وميثاقا
يا زائراً زار من قُرْبٍ على بُعْدٍ ... آنستَ مستوحشا لاذقت ما ذاقا
يا ليلُ عرّج على إلْفَيْن قد جعلا ... عقد السَّواعدِ للأعناق أطواقا

وقال ابن الزقّاق :

ومر تجَّةِ الأعطاف أمّا قوامُها ... فلدْنٌ ، وأما رِدْفُها فرَدَاحُ[2]
سريتُ[3] فبات اللَّيلُ من قِصَرٍ بها ... يطير وما غيْرُ السرور جناحُ
وبتّ وقد زارت بأنعم ليـلةٍ ... يعانقنى حتى الصَّباحِ صبـاح
على عاتقى من ساعِدَيْها خمائلٌ ... وفى خَصْرِها من ساعدىّ وشاحُ

---

(١) نقله فى التنف ١٣ .
(٢) ديوانه ١٢٩ والرداح : الضخمة .
(٣) ديوانه « ألمت »

ونظير هذا قول برهون الغرناطيّ :

لله درّ ليالٍ ما أحَيْسِنَهـا ... وما أحَيسِنَ منها لَيْلَةَ الأحدِ
لو كنتَ حاضِرَنا فيها وقد غفلتْ ... عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحَدِ
أبصرتَ شمس الضحى في ساعدي قمرٍ ... ريمٌ موسّدةٌ في ساعدَيْ أَسَدِ

وقال ابن قاضي ميلة :

حيث التقى أسدُ العرين وظبيةٌ ... تحت اللحاف وصارمٌ وسِوَارُ
قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ... ولقد عهدتك للدخيل تغارُ
أأمِنْتَ نشرَ حديثنا فأجبتُها ... هـذا الذي تُطْوَى له الأسْرَارُ

أخذ هذا من قول امرئ القيس :

تجافَى عن المأثور بيني وبينَها ... وتُدْنِي عليَّ السَّابِرِيَّ المضلّعا[1]

يعني بالمأثور السيف .

قوله : الدّنف : المريض . يُزَاملني : يرادفني ، والزّميل : الرّديف نَبَا . ارتفع وامتنع . أحتقب : أركب موضع الحقيبة ، وهي ما يعلّق خلف الراكب ، فيريد أنه حلف ألاّ يكون رديفاً ، ويريد بأحتقب أتّخذ حقيبة للزّاد ، يريد أنه لا يحمل زاداً اتكالا على ماعند الله تعالى . أعتقب : أركب عقبة يعني نَوْبة ، وهما يعتقبان ويتعاقبان ، إذا ركب أحدُهما فجاء الآخر فكان مكانه ، والاعتِقاب : ركوب واحد ونزول آخر .

ولحاتم في المعنى :

وما أنا بالساعي بفضل زمامِها ... لتشربَ ماء الحوض قبل الركائب[2]

---

(١) ديوانه ٢٤

(٢) ديوانه ١١٨

وَما أنا بالطّاوى حقيبةَ رحلها لأبعثها خِفا وأنزل صاحبى
إذا كنتَ رَبًّا للقلوص فلا تَدَعْ رفيقك يمشى حلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقابُ فعاقبِ

أرتفق: أستعين أرافق: أطلب رفيقاً. يُهَرْول: يسرعُ المشى. غادرنى: تركنى أولول: أصيحُ: يا ويلى. أقريه: أتبعه. توقّل: صعد. الأطواد: الجبال. بالمرصاد: بمضيق الطريق بحيث يرتصد فيه جميع الناس، والمرصد والمرصاد عند العرب الطريق. إيضاع: سرعة، وقد أوضع فى سيره: أسرع كأنه يهتزّ ويركُض. الكُثْبَان: أكداس الرمل. رقع: ضَرَب بالبنان على البنان، أى صفّق بيديه، وقد تطلق البنان مرادًا بها اليد، قال الله تعالى: ﴿واضربوا مِنْهُمْ كلَّ بنَان﴾[1]، أى الأيدى والأرجل.

وأنشد الفَنْجديهىّ:

أقاموا الدِّيدبانَ على يفاعٍ وقالوا لا تَنَمْ للدَّيْدبَانِ
إذا أبصرت ضيفا من بعيدٍ فوقِّع بالبنان على البنان
تراهم خشية الأضياف خُرْساً يقيمون الصلاة بلا أذان

* * *

واندفع ينشد:

لَيْسَ مَنْ زارَ راكِبًا مِثلَ ساعٍ على القَدَمْ
لا ولا خادمٌ أطا ع كماصٍ منَ الخدَمْ
كيفَ يا قومِ يَسْتَوى سَعْىُ بانٍ ومَنْ هدَمْ
سيقيمُ المفرِّطو نَ غدًا مأتَمَ النَّدَمْ
ويقول الذى تقرّ بَ : طوبَى لمنْ خَدَمْ

(١) سورة الأنفال ١٢

وَيكِ يانفسُ قدِّمي صالحاً عند ذى القِدَمْ
وازْدَرِى زخرفَ الحيـ ـاةِ فوُجدانُه عَدَمْ
واذكُرِى مصرَعَ الحِمَا مِ إذا خطبُه صدَمْ
واندُبِى فِعْلَكِ القبيـ ـحَ وسِحِّى له بدمْ
وادْبُغِيهِ بتوبَةٍ قبلَ أن يَحْلَمَ الأدَمْ
فعَسَى اللهُ أن يقيـ ـكِ السَّعِيرَ الّذى احتَدَمْ
يَوْمَ لا عَثْرَةَ تُقا لُ ولا يَنْفعُ السَّدَمْ

* * *

قوله : ليس من زار راكباً ... البيت . يريد أن ثواب الماشى فى الحجّ أكثر من ثواب الراكب .

وقال ابن عباس لبنِيه : اخرجوا من مكّة مشاة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّ للحاجّ الراكب بكلّ خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشى بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحَرَم ، قالوا : يارَسول الله ، وماحسنات الحَرَم ؟ قال : الحسنة منها بمائة ألف .

وقوله : سَعْى بانٍ ومَنْ هَدَم ، من قول بشار:

متى يبلغ البنيانُ يوما تمامَه إذا كنتَ تبنِيه وآخرُ يَهْدِم

المفرّطون: المقصّرون. مأتم : مناحة . ويك : تعجّب. ازدرِى : احتقرى. زخرف : زينة . وُجدان، مصدر وجدت الشىء.اندبى : ابكى . الحِمام: الموت. مصرعه : طَرْحه للميت بالأرض.خطبه : أمره الشديد .صَدم : ضرب، والصَّدْم: ضرب الشىء الصلّب بمثله ، وأراد أنه أصاب ، من قولهم : صدمهم أمر ، أى

أصابهم . سِحّى : صُبّى . يحلم : يثقب . الأدَم : الجلد ، وهو مثل يُضرب للشيء يفوت ، قال الشاعر :

* كدابغة وقد حـــلم الأديم[1] *

السّعير : النار المتّقدة . احتدم : التهب واشتد اتّقاده . السّدَم : همّ مع ندم .

* * *

ثمّ إنّه أغْمَدَ عَضْبَ لِسانِهِ ، وانْطَلَقَ لِشانِهِ ، فما زِلْتُ في كُلِّ موردٍ نَرِدُه ، ومُعَرَّسٍ نَتَوَسّده ، أتَفَقَّدهُ فأفقِدُهُ ، وأسْتَنْجِدُ بِمَنْ يَنْشُدُهُ فَلا يَجِدُه ، حتّى خِلْتُ أنّ الجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ ، أو الأرْضَ اقْتَطَفَتْهُ ، فما كابَدْتُ في الْغُرْبَةِ ، كهذهِ الكُرْبَة ، ولا مُنيتُ في سَفْرَة ، بِمِثْلِها مِنْ زَفْرَة .

° ° °

عضب : حدّ ، وأراد بإغماده سكوته . لشأنه : لأمره . مورِد : موضع الماء . نردُه : نقصِده . معرّس : موضع النزول بالسَّحَر للاستراحة . نتوسّده : ننزل فيه . أتفقّده : أطلبه ، والتفقّد طلب المفقود ، قال الله تعالى : ﴿ وتَفقَّدَ الطَّيْرَ ﴾[2] ، طلبه بعد مافقده . أستنجد : أستعين . ينشده : يطلبه . اختطفته : أخذته ، بسرعة . اقتطفته : اقتطعته . كابدت : قاسيت . الكربة : الهمّ . مُنيت : بُليت . زفرة : تنفّس المهموم .

---

(١) صدره :

* فإنّكَ والكِتابَ إلَى عَلِيٍّ *

من أبيات للوليد بن عقبة يحض فيها معاوية على قتال علي . اللسان ـ حلم .

(٢) سورة النمل ٢٠ .

ولأبى طالب الرّقّىّ فى غلام محرِم[1] :

ومشتملٍ عِطْفَىْ عفاف وفتنـــةٍ
يرى قَتْلَ مَنْ يهوى إلى النُسك مَسْلَكَا
جَنَى اللحظُ من خدّيه وَرْدًا مكفورًا[2]
ومِنْ عارضيه ياسميناً ممسَّكَا
فيا رائحًا منـــه بأوفر فتنةٍ تجهَّز لعام بعد هـذا لعلّكا

وقال صالح بن موسى :

عشقتُ صوفيًا له شاهدٌ يقيم عذْرى عند عُذَّالِى
قد عبُـدِ اللهُ بأحواله فليتَه ينظُـر فى حالِى

(١) أبو طالب الرقى من شعراء اليتيمة ، والأبيات فى الجزء الأول فيها ص ٢٤٥ .
(٢) اليتيمة : « مورودا » .

المقامة الثانية والثلاثون وتعرف بالطيبية

حكى الحارث بن همام ،قال : أجمعتُ حين قضيتُ مَناسِكَ الحجّ ، وأقمتُ وظائف العجّ والثّجّ ، أن أقصدَ طَيْبَة ، مع رُفْقَةٍ مِنْ بنى شَيْبَة ؛ لِأَزورَ قَبْرَ المُصْطَفى ، وَأَخرُجَ من قَبيلِ مَنْ حَجَّ وَجَفَا ، فأرْجفَ بأنَّ المَسالِكَ شاغِرَة ، وَعَرَبَ الحَرَمَيْنِ مُتَشاجِرَة ، فحِرْتُ بَيْنَ إشْفاقٍ يُثَبِّطُنِي ، وأَشْواقٍ تُنَشِّطُنِي ؛ إلى أنْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي الاسْتِسْلامَ ، وتغليبُ زِيارَةِ قَبْرِه عَلَيْهِ السَّلامَ فَأَعْتَمْتُ القُعْدَةَ ، وَأَعْدَدْتُ العُدَّةَ ، وَسِرْتُ والرُّفقَةَ ، لاَ نَلْوِى على عُرْجَةٍ ، وَلاَ نَنِي فى تأويبٍ ولا دُلْجَةٍ ، حَتَّى وَافَيْنَا بنى حرْب ، وقد آبُوا مِنْ حَرْب ، فأزْمَعْنَا أَنْ نُقَضِّىَ ظِلَّ اليوم، فِى حلّةِ القَوْم.

* * *

أجمعت : عزمتُ عليه كأنه جَمع نفسه له.ومناسك الحج:متعبّداتُهُ .وظائف: لوازم ، والوظيفة : النصيب الذى يلزمك عزمُه . العجّ : رفع الصوت بالتّلبية ، وكانوا فى الجاهلية إذا أتَمُّوا حجَّهم يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فأمِرُوا بالثناء على الله تعالى.والثّجّ : إراقة الدماء ،وعجّ يعجّ عَجًّا وعجيجاً :رفع صوته،وثَجَجْتُ الدمع ، أثجّه : أسلته ، وهو لازم ومتعدّ . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال فقال : « العجّ والثّج » .

طَيْبة : مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . بنوشيبة : حَجَبة البيت ، وشيبة هو عبد المطلب ، وسُمِّيَ بذلك ، لأنه نشأ بالمدينة عند أخواله صغيراً ، فلما مات أبوه هاشم ذهب إليه المطلب ، فأتى به فرآه معه أهلُ مكة فقالوا : ماهو إلا عبد اشتراه ،فغلب عليه عبدُ المطلب . جَفَا أراد به قول النبي صلى الله عليه وسلم : «مَنْ حَجّ البيت ولم يَزُرْنِي ، فقد جفانى ، ومَنْ زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من جاءنى زائراً لايهمّه إلا زيارتى كان حقًّا على الله أن أكون له شفيعا يوم القيامة». وفى رواية :« مَنْ زار قبرى وجَبَتْ له شفاعتى » .

وأرجَف الرَّجل : خاض فى الفتنة والأخبار المسيئة . وشغَر الطريقُ : خلا من حُماته والمدينةُ خلتْ من حماتها ، وبلد شَاغر ، بعيد من القاضى والسلطان ، فلا يمتنع مِنْ غارة أحد،والشّغر:التفرقة ،ومنه: خرجوا شَغَر بَغَر ، أى تفرّقوا ، وشغرعن بلده شغراً وشغاراً،إذا طرحوه ونفوْه،واشتغرَتِ الحربُ بينهم:اتّسعتْ وعظمت ، وامرأة شاغرة،إذا رفعت رجليْها لكلِّ من نكحها ، والمعنى أنّ المسالك شاغرة ، أى أنّ الطرق مضطربة خالية من حماتها . الحرمين : مكة والمدينة . متشاجرة : مختلفة . إشفاق : خوف . يثبِّطنى : يحبسنى . تنشّطنى : تحرّضنى . رُوعى : نَفْسى . الاستسلام : الانقياد لأمر الله تعالى . أعتمت : اخترت . القُعْدة : الراحلة المتّخذة للركوب . تلوِى: تعطف . عُرْجة:شىء يُشغل ليُعرَج عليه . نَنِي : نفتر ، وتأويب ودُلجة : مشى النّهار والسّحر ، والدُّلجة ، بضم الدال : الاسم من الإدلاج ، وهو سير جميع الليل ، والتأويب : سير النهار أجمع ، والدَّلجة ؛ بفتح الدال من الإدلاج بوزن الافتعال ؛ وهو أن يسير من آخر الليل . يعقوب:خرجنا بدُلجة ودَلْجة:إذا خرجوا فى آخر الليل. وافينا:

وصلنا . آبوا : رجعوا . أزمعنا : عزمنا . نقضّى : نتمّ ، أراد عزمنا على أن ننزل ونتمّ بقية يومنا عندهم ، وظلّ الشيء إنما يبقى ببقائه . والحِلّة . النزول ، والقوم : اسم للجمع ، والحِلّة هيئة الحلول ، والحِلّة مجلس القوم ومجتمعهم ، لأنّهم يحلّونه ، والجمع حِلال ، والحِلّة جماعة بيوت الناس .

* * *

وبينما نَحْنُ نَتَخَيَّرُ المُناخَ ، ونَرُودُ الوِرْدَ النُّقاخ ، إِذْ رَأَيْنَاهُمْ يَرْكُضُونَ ، كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُون ، فَرَابَنَا انْتِيالُهُمْ ، وَسَأَلْنَا مَا بالُهُمْ ؟ فقيلَ : قَدْ حَضَر نادِيَهُمْ فقيهُ العَرَبِ : فإهراعُهُمْ لِهَذَا السَّبَب ؛ فقلْتُ لِرُفْقَتِي : أَلاَ نَشْهَدُ مَجْمَعَ الحَيّ ، لنتبيَّنَ الرُّشْدَ من الغَيّ ! فقالوا : لَقَدْ أَسْمَعْتَ إِذْ دَعَوْتَ ، ونَصَحْتَ وَمَا أَلَوْت .

* * *

المُناخ : موضع النزول. نَرُود : نطلب . الوِرْد النُّقاخ: الماء البارد العذب، وأنشد أبو عليّ :

تركتُ النَّبيذ لأهل النبيذِ وأصبحت أشرب عذباً نُقاخا

سُمِّي نقاخا ، لأنه ينقخ الفؤاد ببرده ، أى يكسره . يركضون : يجرون مسرعين . نُصب : صنم ، كانوا فى الجاهلية ينصبونه ، ويذبحون عليه لأوثانهم، وجمعُه أنصاب، والنَّصَب : للشرّ، قال الله تعالى: ﴿بنَصْبٍ وعَذَاب﴾ . يُوفضون: يُسرعون . إهراعهم: إسراعهم ، وأهرع : أسرع فزِعاً مرتعداً . وَيُهْرَعون : يُستحثُّون . أَلوتُ : قصرت .

(١) سورة ص ٤١ .

ثمَّ نَهَضْنَا نتَّبعُ الْهَادِى ،وَنَؤُمُّ النَّادِى ، حتَّى إذا أَظْلَلْنَا عَلَيْهِ ، واسْتَشْرَفْنَا الفَقِيهَ المنهودَ إليه ، أَلْفَيْتُهُ أبا زيْدٍ ذَا الشُّقَر والبُقَرِ ، والْفَوَاقِر والْفِقَر ، وقدْ اعْتَمَّ الْقَفْدَاء ، واشْتَمَلَ الصَّمَّاء ، وقَمَدَ القُرْفُصَاء ، وأَعْيَانُ الحىّ بِهِ مُحْتَفُّونَ ، وأَخْلاَطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُّونَ ، وَهُوَ يقول : سَلُونِى عن المُعْضِلاَتِ ، واسْتَوْضِحُوا منِّى المُشْكِلاَت ، فوالَّذِى فَطَرَ السَّمَاء ، وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء ، إنِّى لَفَقِيهُ الْعَرَبِ الْعَرْبَاء ، وأَعْلَمُ مَنْ تحتَ الْجَرْبَاء . فَصَمَدَ لَهُ فَتًى فَتِيقُ اللِّسَانِ ، جَرِىء الْجَنَانِ ، وقال : إنِّى حاضرتُ فُقَهَاءَ الدُّنيا ، حتَّى انْتَخَلْتُ مِنْهُمْ مائة فُتْيَا ، فإنْ كُنتَ مِمَّنْ يَرْغَبُ عن بناتِ غَيْر ، ويَرْغَبُ مِنَّا فى مَيْرٍ ، فاسْتَمِعْ وأجِبْ ، لِتُقَابَلَ بِمَا يَجِب ، فقال : اللهُ أَكْبَرُ ، سَيَبِينُ الْمَخْبَر ، وَيَنْكَشِفُ الْمُضْمَر ، فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ .

* * *

الهادئ : الدليل . نؤمّ : نقصد . النادى : مجتمَع القوم . أظللنا : قربنا منه ودنونا وأشرفنا عليه . استشرفنا : نظرنا وتأمَّلنا ، والاستشراف : أن تضع يدَك على حاجبك من الشمس إذا أردت النَّظر إلى شىء يبعدُ منك. المنهود : المقصود ، ونهدت إليه ونهضت بمعنًى ، ونَهَد ينَهد نَهَداً ، أى شخص ونهض . وقيل : أكثر مايستعمل هذا فى الحرب ، يقال : نهد إلى العدوّ ، إذا نهض ليقاتله . ألفيتُه : وجدته . ذا الشُّقر والبُقر : صاحب الدواهى ، يقال : جاءنا بالشُّقَر والبُقر ، إذا جاء بالكذب المستفظَع ، وجاء بالشُّقَارى والبُقَارَى ، أى بالكذب . والفواقر : قواصم الظَّهر ، يراد بها الدواهى ، والفاقرة : الكاسرة للفَقار ، وهو

عظم الصُّلْب . والفِقَر فى النثر ، مثْلُ القوافى فى الشعر . القَفْداء ، بالقاف قبل الفاء : أن يلفّ عمامته على رأسه ولا يرسل منها شيئاً . ابن سيده : القَفْداء : والقَفْد ، إذا لوى عمامته على رأسه ، ولم يُسْدِلها ، قال الأزهرىّ رحمه الله تعالى : العمّة القَفْداء معروفة ، وهى المِيْلاء ، والسنّة أن يتعمّم ويُسْدِل خلف ظهره .

ابن عمر رضى الله عنهما . كان النبى صلىّ الله عليه وسلم إذا تعمّم سدَلَ عمامته بين كتفيه . والصَّمَّاء : أن تُجلِّل نفسك بالثوب غير المخيط ، ولا ترفع شيئاً من جوانبه ، فتكون فيه فُرْجة تخرج منها اليد ، وإنما نَهَى عن ذلك مخافةَ أن تصيبَه شدّة فى تلك الحالة ، وهو لا يقدِر على إخراج يده ، فيدفعها فيهلِك .

وقال الفجنديهىّ : رأيتُ بخط الحريرىّ : اشتمل الصَّمَّاء ، أى التحف بثوب جَلّل جسده ، وقيل لها صمّاء لأنها لا منفذ فيها كالصخرة الصماء ، التى لا صَدْع فيها ولا خَرْق ، وهى عند الفقهاء أن يشتمل بثوبٍ واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على مَنكِبيه ، فتبدو عورته ، فنُهى عن ذلك .

وقال الأزهرىّ : هذا أصَحّ الكلام ، والفقهاء أعلم بتأويل هذا . والقُرْفُصاء : أن يقعد على إليَتيْه ، وينصب ساقيه ، ويلصق فخِذيه ببطْنه ويحتبى بيديه فيضعهما على ساقيه ، قاله أبو عبيد . وقيل : هى جلسة المحتبِى ، ثم يرفع فَخِذَيْه وركبتيه إلى صدره ، ويدير يديه عَلَى ساقيه ، ويشدّهما ، فإذا فعلت ذلك بالرجل وشدّدت يديك عليه ، فقد قرفصتَه .

الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ : معناه أن يَحْتَبِىَ بيديه ، قال أبو أمامة : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يجلس القُرْفصاء فيضع يده اليمنى على الشمال عند المفصل . وتقرفَص الرّجل ، إذا جمع يديه وانضمّ من جَرَب أو قروح به .

أعيان : أشراف . محتفّون : محلّقون ، والمنزل محفوف بالناس إذا اجتمعوا بحَفافيه ، أى بجانبيه . والأخلاط : الدُّون من الناس . والمعضِلات : الغامضات

من الكلام الصَّعْب. واستوضحوا ، أى طلبوا منّى إيضاحها ، أى بيانها . فَطَر: خلق ، وفطر الله الخلق ابتدأ خلقهم ، قال ابنُ عباس : ما كنت أدرى ما فاطرُ السموات والأرض حتى احتكم إلىّ أعْرابيّان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتُها، أى ابتدأتها ، وقال الله تعالى: ﴿إلاَّ الذّى فَطَرَنى﴾[1] أى خلقنى. ويتفطّرن: يتشقّقن ، وانفطرت : تشقّقت . وعلّم آدم الأسماء كلّها ، أى علمه أسماء كل شىء من المخلوقات . وفقيه العرب، أى عالمهم ، وقال تعالى: ﴿ليتفقّهوا فى الدين﴾[2] أى ليكونوا علماء به ،وكلّ عالم بشىء فهو فقيه فيه ، ويقال:فقهت عنك ، أى فهمت، وفقهت فقهاً ، أى صرت فقيها ، وهو الحاذق بما يعلمه ، وفقِهت الرجل : غلبته فى الفقه . العَرْباء : الخالصة ، وهذا الادّعاء الذى يُدعى الآن يسمى انتحال العلم .

وقال بعض الحكماء : لاينبغى لأحد أن ينتحل العلم .

وقال مقاتل بن سليمان يوما ، وقد دخلته أبّهة العلم : سلونى عمّا تحت العرْش إلى أسفل الثرى ، فقال له رجل : مانسألك عن شىء من ذلك ، إنّما نسألك عما معك فى الأرض ، أخبِرْنى عن كلْب أهل الكهف ما كان لونه ؟ فألجمه .

ولما شُهِرتْ تآليفُ ابن قتيبة ، ولُحِظ بعين العالم المتفنّن، صعِد المنبر ، وقد غَصّ المحفل واعتلى ، تبريزاً على علماء وقته ، مع فضل جاه اشتمل به من السلطان ، فقال : ليسألنى مَنْ شاء عمّا شاء ، فقام إليه أحد الأغفال ، فقال له : ما الفتيل والقِطمير ؟ فلم يُحْر جوابا ، وألجمَه ونزل خجلا ، وانصرف إلى منزله كسلاً . فلما نظر اللفظتين وجد نفسه أذْكرَ الناس بهما ، وهذا من عقاب العُجْب .

ورأيت فى بعض الأخبار أنّ ابنَ قتيبة سُئِل عن حرف لغة فلم يعلمْه وقت

(١) سورة هود ٥١ . (٢) سورة التوبة ٢٢ .

السؤال ـ وكان أبيض مشرباً بحمرة ـ فلما وجد الحرف غلبت الحمرة على وجهه ، حتى طفىء أسفاً على فَوْتِ الحرْف وقت الحاجة ، ولعله كان ما قدَّمنا فى الحكاية .

وقال قتادة : ما سمعت قطّ شيئاً إلا حفظتُه ، ولا حفظت قطّ شيئاً فنسيته . ثم قال : يا غلام هات نعلى ، فقال : هما فى رجليك ، ففضحه الله .

وقال قَتَادة : حفظت ما لم يحفظ أحدٌ قطّ ، ونسيت ما لم ينس أحد قطّ ، حفظت القرآن فى سبعة أشهر ، وقبضت على لحيتى ، وأنا أريد أن أقطع ما تحت يدى ، فقطعت ما فوقها .

وكان بشر يش رجل من أهل الدين والورَع ، وحجّ فى أيام أبى حامد ومحبه ، ففاتت صلاة الصبح يوماً لأحد أصحابه ، فلامه على ذلك ، فاعتذر له صاحبه فلم يعذِره . ثم قال له عَلَى معنى الترغيب : كَمُلتْ لى اليوم عشرون سنة ، ما فاتتنى صلاة الصبح فى جماعة ، فلمّا كان فى اليوم الثانى أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعةً واحدة ، فلما لَقِيَه صاحبه بعد الصلاة قال له : هذا كما رأيت . وإنما ذكرت عملك على معنى التبصرة والإرشاد ، فلو ذكرتَه على غير ذلك لفاتتك ، وإذا كان موسى كليم الله قد عاتبه الله على الانتحال ، حين سئل : أىّ الناس اليوم أعلم ؟ قال : أنا ، وابتُلى بالسفر حتى لقى الخِضْر ، وجلس إليه راغباً فى أن يعلِّمه ، والخضر لاينبسط له فى التعليم ، ونقَر عصفور فى البحر ، فقال له الخَضِر : ما علمى وعلمك فى علم الله تعالى ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وروى عن عبد الملك بن حبيب من طريق وهب بن منبّه : أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام : أتدرى لم كلَّمتُك ؟ قال : لا ياربّ ، قال : إنى اطّلعت على قلوب العباد فلم أرَ فيها قلبا أشدّ تواضعاً من قلبك ، قال المنجم :

لكل شىء فى الورى آفةٌ وآفة المرء من الكِبْرِ

وقال آخر :

الكِبْر يأسٌ والتواضع رفعةٌ والمزح والضحك الكثير سقوط
والحرصُ فقر والقناعة رفعةٌ واليأس من روح الإله قنوطُ

فينبغى لكل عاقل أن يقول : ما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ ربِّ زدنى علماً ﴾[1]، ولا يَرَى لنفسه حظًّا ، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه فهو بالأدب أليق ، وبالشرع أوفق .

ومن سخيف الشعر فى الانتحال :

وما عنَّ لى من غامض العلم غامضٌ مَدَى الدَّهر إلاّ بتَّ منه على عِلْمِ

وقال عدىّ بن الرّقاع :

وعلمت حتى ما أشاورُ عالما عن علم واحدةٍ لكى أزدادها[2]

وسمعه كُثيِّر ينشده الوليد بن عبد الملك ، فقال له : كذبت وربّ البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين فى صغار الأمور دون كبارها ، حتى يتبين جَهلُك ، وما كنتَ قطّ أحمق منك اليوم حين تظنّ هذا فى نفسك[2].

وقال أبو موسى المنجم : ما أحدٌ تمنّيت أن أراه ، فلمّا رأيته أمرت بصَفْعِه إلا عديًّا ، فقيل له : ولم ذلك ؟ قال : لقوله هذا البيت ، كنت أعرض عليه أصناف العلوم ، فكلّما مرّ عليه بشىء لا يحسنُه أمرت بصفعه .

قوله : وأعلم مَنْ تحت الجرباء : سُمِّيَت السماء جرباء ، لأن النجوم فيها كالجَرَب فى البدن .

وقال ابن الرومىّ فى غلام يَهْواه وخرج عليه جُدَرىٌّ ، وأشار إلى جرب السماء :

وقالوا شانه الجُدَرِىّ فانظرْ إلى وجهٍ به أثر الكلومِ
فقلت : ملاحةٌ نُثِرت عليه وما حُسْنُ السَّماء بلا نجومِ!

(١) سورة ط ١١٤ (٢) الأغانى ٨ : ٣٣

وقال أبو بكر بن السراج فى الفتح بن مسروق البلخىّ ، وقيل : قالهما فى ابن ياسر المغنّى ، وكان من أحسن الناس وجهاً :

لى قمر جُــدِّر لمّا استوَى فزاده حسنا وزاتْ الهمــومْ[1]
كأنّمَا غنّى لشمس الضحى فنقّطته طربا بالنجــومْ

وقال آخر :

كأنّ آثار بُجديرٍ بوجْنَتِهِ عشر معوّرة فى صحف ورّاقِ

* * *

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون :

قالَ لى اعتلّ مَنْ هويتَ حسودُ قلت أنتَ العليلُ ويْحَكَ ، لا هُو[2]
ما الذّى تنقِمُونَ من بثّرَاتٍ ضاعفتْ حسنَهُ وزانت حلاهُ
وَجْهُه ـ فى الصّفاء والرقة ـ المـا ء ، فلاَ غَرْوَ أنْ حَبابٌ علاَهُ

قوله : صمَد ، أى قصد . فَتِيق : طَلِيق . جرىء الجنان : ماضى القلب قويّه . انتخَلْت : اخترت . الفتيا : لغة فى الفَتْوى ، وهما اسمان يُوضعان موضع الإفتاء ، تقول : إفتاء وفُتْيَا وفَتْوى .

بنات غير ، كناية عن الكذب . الفنجديهىّ . رأيت بخط الحريرىّ : بَنَات الغير : الكذب .

الفرّاء : يقال للرجل ، أبو بنات عبر ، وهو الباطل بعين مهملة وباء منقوطة ، واحدة .

مَيْر : رزق وصلة ، وأصله جَلْب الطعام للأكل . الله أكبر : حكَى أهل اللغة أنّ معناه كبير ، وقال الفرزدق :

إنّ الّذِى سَمَك السّمَاء بنَى لَنَا بيتــاً دعائمه أعزّ وأطْوَلُ[3]

(١) إنباه الرواة ٣ : ١٤٨
(٢) ديوانه ١٢٤ .
(٣) ديوانه ٢١٤ .

أى عزيزة طويلة .

قال معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنِّى لأوْجَلُ عَلَى أيّنا تَعْدُو المَنيّة أوّلُ[1]

أى لوجل ، وقال النّحويون : الكسائى والفراء وهشام معناه : أكبرُ من كل شىء ، فحذفت مِنْ لأنّ أفعل خبر، كقولك : أبوك أفضل وأعقل ، أىْ من غيره ، ولو كان اسما لم يحذف منه شىء ، ألا ترى أن مَنْ قال : أخوك أفضل لم يقل إن أفضل أخوك ، فحذفت « مَنْ » فى الخبر ، لأن الخبر يدلّ على أشياء غير موجودة فى اللّفظ ، نحو أخوك قام ، فيدلّ على المصدر والزمان والمكان والاسم لايحذف منه شىء يدلّ عليه . والخَبَر ، مصدر خبرت خَبَرَةً وخُبْرًا ، إذا جرّبته ، فأراد : سيتبيّن لك بالتجربة ماادّعيته من العلوم، وينكشف لك ماأضمرته منها . اصْدَع : تكلّم وأظهر ، وصدعتُ بالحق تكلّمتَ به جهارا، وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[2] أى أظهرْ دينك .

وإنما اعتمد الشيخ أبو محمد الحريرى فى شرح الألفاظ التى ألغز بها على الوجه المعنى ؛ ولنشرح ما سوى ذلك مما اشتملتْ عليه إن شاء الله تعالى :

* * *

[فقيه العرب وفتواه]

قال : ما تَقُولُ فِيمَن تَوَضَّأَ ثُمَّ لَمَسَ ظَهْرَ نَعْلِهِ ؟ قال : انتقَض وُضُوءهُ بِفِعْلِهِ (النَّعْل : الزّوجة) .

قال : فإن توضّأ ثُمَّ أَتَـكَأَهُ الْبَرْد ؟ قال : يجدّدُ الوُضُوء من بَعْدُ (الْبَرْد : النوم) .

قال : أَيَمْسَحُ المتوضّئ أُنْثَيَيْه ؟ قال : قَدْ نُدِبَ إليـه ، ولم يوجَبْ عليه . (الأُنْثَيان: الأُذُنان) .

(١) ديوانه ٥٧ . (٢) سورة الحجر ٩٤

قال : أيجُوز الوضوء مِمّا يَقْذِفُهُ الثُّعبان ؟ قال : وهَلْ أنظف مِنْهُ لِلْعُرْبَان ! (الثُّعبان : جمع ثَعْب، وهو مَسيلُ الوادى)

قال : أَيُسْتَبَاحُ ماءُ الضَّرِير ؟ قال : نعم ، وَيُجْتَنَب مـاء الْبَصِير . (الضَّرير : حَرْف الوادى . والبَصير : الكَلْب) .

قال : أيحِلّ التَّطَوُّف فى الرَّبيع ؟ قال : يُكْرَهُ ذلك لِلْحَدَثِ الشَّنيع . (التَّطوُّف : التَّغَوُّط . والرَّبيع : النَّهْر الصَّغير) .

* * *

قوله : لمسّ، جرّ أصابعه عليها . أتكأه : جعله مُتّكئًا . يقذفه : يطرحه من بطنه . والضّرير : الأعمى . والبَصِير : البَصَر .

والطّوف : مصدر طاف حَوْل الشيء إذا دار به . والحدَث : الغائط ، وجعله شنيعًا لأن الإنسان إذا فعله فى الماء ظهر على وجه الماء فكانت به شنعة ، واستُقذر الماء فلم يستعمل ، وإن كان مباحًا استعماله .

* * *

قال : أيجب الغُسْلُ على مَنْ أمْنَى ؟ قال : لا ولو ثنّى . (أمْنَى : نزل مَنْى ، ويقال منه : مَنَى وأمْنَى وامْتَنَى) .

قال : فَهَلْ يجبُ عَلَى الْجُنُب غَسْلُ فَرْوَتِهِ ؟ قال : أجل وَغَسْلُ إبْرَتِهِ (الفروَة: جِلْدَةُ الرَّأس ،والإبْرَة :عَظْمُ المِرْفَق) .

قال : أيجبُ عَلَيْهِ غَسْلُ صَحِيفَتِهِ ؟ قال : نعم كَغَسْلِ شفَتِهِ (الصَّحيفة : أسِرّةُ الْوَجْه) .

قال : فإن أخَلَّ بِغَسْلِ فَأْسِهِ ؟ قال : هو كما لَوْ أَلْغَى غَسْلَ رَأْسِه (الفأس : العَظْم المشرِفُ عَلَى نُقْرَةِ القفا) .

قال : أيجوزُ الغُسْلُ فِي الجرابِ ؟ قال : هو كالْغُسْلِ فى الجِباب .
(الجِراب : جَوْفُ البئر)

قال : فما تقولُ فيمن تيمّم ثم رأى رَوْضا ؟ قَالَ : بَطَلَ تَيَمُّمُهُ فليتوضّأ (الرَّوْض هاهنا: جَمْع رَوْضة ،وهى الصُّبابَة تَبْقَى فى الحوْضِ).

• • •

أخلّ : نقص . نُقْرَة : حُفْرة . الرَّوض : مواضع الغيث . والصُّبابة : البقيّة .

* * *

قال: أيجوزُ أن يَسْجُدَ الرَّجل فى العَذِرَة ؟ قال: نعم وليجانب الْقَذِرَة
(العَذِرة : فناء الدار) .

قال : فهَلْ له السُّجودُ عَلَى الخِلاَف ؟ قال : لا ، ولا عَلَى أَحدِ الأطراف . (الخِلاَف : الـكُمّ) .

قَالَ : فإِنْ سَجَدَ على شِمَالِهِ ؟ قال : لا بأسَ بفِعالِه . (الشِّمال : جمع شَمْلَة) .

قال: فهلْ يجوزُ السُّجود عَلَى الكُرَاعِ ؟ قال: نَعَمْ ، دُون الذِّرَاع
(الـكُراع : ما اسْتَطَالَ من الحَرّة ، وهى أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سُودٍ) .

قال : أيُصَلِّى عَلَى رَأْسِ الْـكلْب ؟ قال : نَعَمْ ، كَسَائِرِ الْهَضْبِ
(رأس الـكلب : تَنِيّةٌ مُعْروفَة) .

قال: أيجوزُ للدّارِسِ حَمْلُ المصاحِف ؟ قال: لا، ولا حَمْلُها فى الملاحِف.
(الدّارِس : الحائض) .

قال : ما تقول فيمَن صلَّى وعانَتُه بارِزَة ؟ قال : صَلاَتُه جائِزة .
(العَانة : الجماعة من حُمُر الوحش) .

والكُراع : الرِّجْل ، وكُراع كلِّ شيء طرفه . والحَرَّة : أرض فيها حجارة سُود . والهُضْب : جمع هَضَبَة وهى الصخرة العظيمة ، والكُدْية الصغيرة ، وقيل : الهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض ، وقيل : الجبل الطويل المتَّسع والجمع هضاب . ثَنِيّة : عَقَبَة .

* * *

قال : فإن صَلَّى وعَلَيْهِ صَوْمٌ ؟ قال : يُعِيدُ ولَوْ صَلَّى مائة يوم .
(الصَوْم : ذَرَق النَّعام)

قال : فإن حَمَل جِرْوًا وصَلَّى ؟ قال : هُوَ كما لَوْ حَمَلَ باقِلَّى .
(الجِرْو : الصِّغار من القِثَّاء والرُّمان) .

قَالَ : أتَصِحُّ صَلاَةُ حامِلِ الْقَرْوَة ؟ قَالَ : لا ، ولو صَلَّى فَوْقَ الْمَرْوَة
(القَرْوَة : مِيَلَغَةُ الْكَلْبِ) .

قَالَ: فإنْ قَطَرَ عَلَى ثَوْبِ الْمُصَلِّى نَجْو ؟ قال يَمْضِى فى صَلاَتِهِ ولا غَرْو . (النَّجْو : السَّحَاب الَّذِى قدْ هَرَاقَ ماءه) .

قال: أيجوزُ أن يَؤُمَّ الرِّجالَ مُقَنَّع ؟ قَالَ : نعم ، ويؤمُّهُمْ مُدَرَّع .
(المقنَّع : لابس المِغْفَر ، والمدرَّع : لابس الدِّرْع) .

قال : فإن أمَّهُمْ مَنْ فى يَدِهِ وَقْفٌ ؟ قال: يُعِيدُون ولَوْ أنَّهم ألف

(الوَقف : السِّوَارُ من العَاج أو الذَّبْل ، وأراد أنّه لا يَجُوز للرجال الائتمامُ بالنِّساء) .

• • •

الميلَغة : ما يَشْرب فيه الكلاب الماء ، وهى من وَلغ الكلبُ ، إذا تَناول الماء بلسانه والقَرْوة : نَقِير من خشب تشرب منه الكلاب . والقِثّاء : هو الفَقُّوس . والنَّجْو : هو الحدَث لا غَرْو : لا عجب . والمقنَّع : لابس القِناع ، يريد المرأة . والوَقْف : ما وُقِف وحبس من الأموال على المساكين والمساجد . والذَّبل : جلد السُّلَحفاة البرّية ، ويقال : إنها تعظم ، فربّما يضع التاجر ليلا عليها حمله يظنّها صخرة فترتحل به ، ويستعمل من الطّبق الذى عليها خلاخل للحشَم والعبيد . والعاج عَظم الفيل .

* * *

قال : فإن أُمَّهُمْ مَنْ فَخِذُهُ بادية ؟ قال : صَلاتُهُ وصَلاتُهُمْ ماضية . (الفخِذ : العشيرة ، وبادِية ، أى يسكنون البَدْو ، واختار بعض أهل اللغة تسكين الخاء مِنْ هذه الفَخِذ ، ليحصُل الفرق بينها وبين العضو) .

قال : فإنْ أَمَّهُمَ الثور الأجمّ ؟ قال : صَلِّ وخَلاكَ ذمّ . (الثَّور : السَّيِّد . والأجَمّ : الذى لا رُمْحَ معه) .

قال : أيَدْخُلُ القَصْرُ فى صَلاةِ الشَّاهِد ؟ قال : لا ، والغَائبِ الشاهد . (صلاة الشّاهِد : صلاة المغرب ، سُمِّيَتْ بذلك لإقامتها عِنْدَ طُلُوع النجم ، لأنّ النَّجْم يُسمَّى الشاهد)

قال : أيجوز لِلْمَعْذُورِ أنْ يُفْطِرَ فى شَهْرِ رَمَضان ؟ قال : ما رُخِّصَ فيه إلاّ للصِّبيان . (المَعْذُورُ : المخْتُون ، وهو أيضا المُعذّر) .

قال : فهَلْ للمعرِّسِ أنْ يأكُلَ فيه ؟ قال : نَعَمْ بِمِلْءِ فِيهِ .

(المعرِّس : المسافِر الّذى ينزل فى آخر ليله لِيَستريحَ ثمّ يرتحل).

قال : فإنْ أفطَرَ فيه المُرَاة ؟ قال : لا تُنكِرُ عليهم الوُلاة .

(المُراة : الّذينَ تأخذهم العُرَواء ، وهى الحمّى بِرِعْدَةٍ) .

* * *

قال: فإنْ أَكَلَ الصّائمُ بَعْد ما أَصْبَحَ ؟ قَالَ:هُوَ أَحْوَط لهوأصلَحَ.

(أصبح ، أى استصْبَحَ بالمِصباح).

قال : فإنْ عَمَدَ لِأن أَكَلَ ليلاً ؟ قال : لِيُشَمِّرْ لِلْقضاء ذَيْلاً .

(ذكر ابن دُرَيد أنّ اللّيل فَرْخ الحُبارى ، وقالَ غيرُهُ : هُوَ وَلَدُ الكروان) .

قال : فإن أَكَلَ قَبْل أن تتوارَى البَيْضاء ؟ قَالَ : يلزمُه والله القضاء.

(البَيْضاء من أسماء الشّمس) .

قال: فإن اسْتَثَارَ الصّائمُ الكَيْد؟ قال : أَفْطَرَ وَمَنْ أَحَلّ الصَّيْد .

(الكَيْد : القيءُ . واستثاره ، أى استَدْعاه) .

قال : أَلَهُ أنْ يُفطِرَ بإلْحاحِ الطّابخ؟ قال : نعم لا بطاهِي المَطابخ .

(الطّابِخ : الحُمّى الصّالب) .

قال : فإن ضحِكَتِ المرْأةُ فى صَوْمها ؟ قَالَ : بَطَلَ صَوْمُ يَوْمِها .

(ضَحِكت ها هنا ، أى حاضتْ ، ومنه قولة تعالى : ﴿ فضحِكَتْ فَبَشّرناها بإسْحَاقَ ﴾ .

قال:فإن ظَهَرَ الجُدَرِيّ عَلَى ضَرّتِها ؟ قال: تُفطِرُ إنْ آذنَ بمضرّتها .

(الضَّرّة : أصْلُ الإبْهام ، وأصْلُ الثّدْي أيضًا).

الطَّاهى : طابخ اللّحم . والصَّالب : الحمّى لا ترعد ، وإلحاحها : ملازمتها .
الجُدَرِىّ : قروح صغار تخرج على الصبيان . وضَرّتها : شريكتها فى زوجها .

* * *

قال : ما يجبُ فى مائة مِصْباحٍ ؟ قال : حِقَّتانِ يا صاح .
(المِصْباح : النّاقة التى تُصبح فى المبْرك) .

قال : فإن مَلَكَ عَشْرَ خَنَاجر ؟ قال : يُخْرِج شاتين ولا يُشاجر .
(الخناجِر : النُّوق الغِزار الدّرّ ، واحدتها خِنْجَر وخُنْجُور) .

قال : فإن سَمَحَ للسّاعِي بِحَمِيمَتِه ؟ قال : يا بُشرَى لَهُ يَوْمَ قيامَتِه .
(السّاعِى : جابِى الصَّدَقة ، والحَمِيمَة : خِيارُ الْمَال) .

قال : أَيَسْتحِقُّ حَمَلَةُ الأوْزَارِ من الزَّكاةِ جُزًّا ؟ قَالَ : نَعَمْ إذا كَانُوا غُزًّى . (الأوْزار : السِّلاَح . وغُزًّى : جمع غازٍ) .

قال : أيجوز للحاجِّ أنْ يَعْتَمِرَ ؟ قال : لا ، ولا أنَ يَخْتَمِرَ .
(الاعتمارُ : لُبْس العِمارَة ، وهِىَ العمامة ، والاختمار : لبس الخِمـــار) .

قال : فَهَلْ لَهُ أنْ يَقْتُلَ الشُّجاع ؟ قال : نعم ، كما يقتل السَّبُاع .
(الشُّجَاع : الحيّة) .

الحِقّة : التى استحقّت أن يركب عليها . والخناجر : نوع من السّكاكين الكبار . ويشاجر : يخالف . والجابى : الجامع للصدقة، ومنه الجباية .

والأوزار : أثقال الذنوب . والغُزّى : هؤلاء الرّماة بالنشّاب . ويَعْتَمِر : يحجّ بعمرة . ويختمر : يستعمل الخبز المختمر .

* * *

قال : فإنْ قَتَلَ زَمَّارَةً فى الحرَمِ ؟ قَالَ : عَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ النَّعَمِ .
(الزَّمَّارة : النَّعَامة واسْمُ صَوْتِها الزَّمَّار) .

قال : فإنْ رَمَى ساقَ حُرٍّ فجدَّلَهُ ؟ قال : يُخرِج شاةً بَدَلَهُ .
(ساق حُرّ : ذَكَر القَمَارِى)

قال : فإن قَتَل أُمَّ عَوْفٍ بَعْدَ الإحرَام ؟ قَالَ يتَصَدَّقُ بِقُبْضَةٍ مِنْ طَعَامٍ . (أم عَوْف : الجرادة) .

قال : أيجبُ عَلَى الحـــاجِّ اسْتِصْحَابُ الْقَارِب ؟ قالَ : نعم ، ليسوقَهُمْ إلى الْمَشَارِبِ. (القارِب : طالبُ المَاء باللَّيْلِ) .

قَالَ : ما تَقُولُ فى الحَرَامِ بَعْـــدَ السَّبْتِ ؟ قَالَ : قدْ حَلَّ فى ذَلِكَ الوقْتِ . (الحَرَام : المحرَّم ، والسَّبْتُ : حَلْق الرّأس . وحَلَّ ، من تحليل الحَجّ) .

قال : ما تقولُ فِى بَيْع الـكمَيت ؟ قال : حَرَامٌ كبَيْعِ المَيْتِ .
(الـكُمَيْت: الخَمْر) .

والزَّمَّارة: المرْأة تَضْرب بالمزمار . والبَدَنة الناقة ، سُمِّيت بذلك لضخامتها وبَدُن الرّجُل ضَخُم . جَدَّلَهُ : قتله وطرحَه على الجدالة ، وهى الأرض . ومن أبيات اللّغز فى الجرادة :

وما صَفْرَاءُ تُـكْنَى أمّ عَوْفٍ كأنّ سُوَيْـقَتَيْها مِنجـلاَنِ

والقارب : السفينة الصغيرة . والـكُمَيْت : الفرس الأسود العُرْف والذَّنَب. والـكُمْتَة : حُمْرَة تضرب إلى السواد .

* * *

قال : أيجوز بَيْعُ الخلّ بلحْم الجمل ؟ قال : ولا بلحْم الحَمَل .
(الخلّ ابنُ المخاض ، ولا يحلّ بيعُ اللّحم بالحيوان ، سواء كان من جِنْسه أو مِنْ غير جنسه) .

قال : أيحِلّ بيعُ الهَدِيّة ؟ قال : لا ولا بَيْعُ السَّبِيّة . (الهديّة ، بالتّشديد : ما يُهْدَى إلى الكعبة ، ويقال فيها هَدْيَة ، بتسكين الدّال وتخفيف الياء . والسبيّة : الخمر) .

قال . ما تقول فى بيع العَقِيقة ؟ قال : محظورٌ على الحقيقة . (العَقِيقة: ما يُذْبحُ على المولود فى اليوم السّابع من وِلادته) .

قال : أيجوز بيعُ الدّاعى ، على الرّاعى ؟ قال . لاَ ، ولاَ على السّاعى.
(الدّاعى : بقية اللّبن فى الضّرْع ، والسّاعى: جَابِى الصّدَقه) .

قال : أيُبَاع الصَّقْر بالتّمر ؟ قال: لاَ ، ومالِك الخلْق والأَمْر .
(الصَّقْر : الدِّبس) .

قال : أيَشْترى المسْلِم سَلَب المُسْلِمَات ؟ قال : نَعَم ، ويورَثُ عنه إذا مات . (السَّلَب : لِحاء الشّجر ، وهو أيضا خُوصُ الثُّمام)

والحمَل : الخروف . والعَقِيقة : خَرَزة حمراء . محظور : ممنوع . والصَّقْر : من جوارح الطير . الدِّبْس : عسل التّمر . خَوص : ورق . الثُّمام : شجر ضعيف وَرَقُه كورق الدّوْم مزدوجة .

* * *

قال : فهل يجوزُ أَنْ يُبتَاع الشّافِع ؟ قال : ما لجوازه من دافع
(الشافع : الشاة الّتى يتبعها سَخْلُهَا) .

قال : أَيُبَاعُ الإبريقُ على بنى الأَصْفَر ؟ قال : يُكْرَه كبيع المِغْفَر .

(الإبريق : السّيف الصّقيل الكثير الماء . وبنو الأصفر : الرّوم) .

قال : أيجوز أن يبيعَ الرّجل صيفيّه ؟ قال : لا ، ولكنْ ليبعْ صفيَّهُ . (الصيفيّ : الولد على الكِبَر ، والصفيّ : الناقة الغزيرة الدّرّ) .

قال : فإنِ اشْتَرَى عبْدًا فبانَ بأمّه جِراح ؟ قال : ما فِي رَدّهِ من جُناح . (الأمّ : مُجْتَمعُ الدّمَاغ) .

قال : أتثبت الشُّفْعَة للشريك في الصحراء ؟ قال : لا ، ولا للشريكِ فى الصَّفْرَاء . (الصّحْرَاء : الأتان التى يُمازج بياضَها غُبْرة والصّفرَاء : النّاقة) .

قال : أيحِلّ أنْ يُحْمَى ماءُ البِئْرِ والخَلاَ ؟ قال : إن كان فى الْفَلاَ فَلاَ . (يُحْمَى : يمنع . والخَلا : الكَلأ) .

الإبريق : آنية الخمر . الصَّيْفيّ : ما ولد فى زمن الصيف . والصَّفيّ : الصاحب الخالص . والدّرّ : اللبن . وبان : ظهر . وجَنَاح : إثم . والأتان : الأنثى من الحمير .

* * *

قال : ما تقول فى مِيتة الكافِرِ ؟ قال : حِلٌّ المقيم والمسافر .

(الكافر : البحر ، وميتته : السَّمَكُ الطّافِي فوق مائِه) .

قال : أيجوز أن يُضَحَّى بالحُول ؟ قال : هو أجْدَرُ بالقَبُول .

(الحُول : جمع حائل) .

قال : فهلْ يُضَحَّى بالطّالِق ؟ قال : نعم ، ويُقْرَى منها الطارِق .

(الطالق : الناقة تُرْسل ترعَى حيث شاءت) .

قال : فإنْ ضَحَّى قبل ظُهورِ الغَزالَة؟ قال : شاة لحمٍ بلا مَحالةٍ .

(الغَزَالة : الشمس) . قال بعضهم : يقال : طلعت الْغَزالة . ولا يقال : غَرُبَت، وضدَّها الجَوْنة ، تسمَّى بها عند مغيبها ، لأنها تسودُّ حين تغيب ، كما قال الشاعر :

* تبادر الجوْنة أن تغيبا[1] *

قال : أيحِلّ التَّكسّب بالطَّرْق ؟ قال : هو كالقِمَار بلا فرق .

(الطَّرْق : الضَّرْب بالحصَى ، وهو من أفعال الكَهَنة) .

قال : أيسلِّم القائمُ على القَاعِد ؟ قال : محظُورٌ فيما بين الأبَاعِد .

(القاعد : التى قعدت عن الحيْض أو عن الأزْواج) .

والطّافى : المرتفع على وجه الماء . والحُول : جمع أحْوَل وحَوْلاء . أجْدَر : أحق . والطَّرْق : السَّيْر بالليل . محظور : ممنوع .

* * *

قال : أيَنَامُ العاقِلُ تحت الرَّقيع ؟ قال : أحْبِبْ به فى الْبَقيع .

(الرَّقيع : السَّماء ، وعَنَى بالبقيع المدينة) .

قال : أيُمْنَعُ الذِّمّى مِنْ قتلِ الْعَجُوز ؟ قال : معارضتُه فى الْعَجوز لا تجوز . (العَجُوز: الخمر . وقتلها : مَزْجُها) .

قال : أيجوز أنْ ينتقل الرَّجُلُ عِنْ عِمَارَةِ أبيه ؟ قال : ما مُجرِّز لحاملٍ ولا نبيه . (العِمارة : القَبيلة)

---

(١) اللسان ـ جون

قال : ما تقول فى التهوُّد ؟ قال : هو مفتاح التزهّد . (التَّهوُّد : التوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّا هُدْنا إليكَ ﴾ .

قال : ما تقول فى صَبْرِ البَلِيّه ؟ قال : أعْظِمْ بِهِ من خَطِيّة . (الصَّبْر: الحبس . والبليّة: الناقةُ تحبَس عند قبر صاحبها، فلا تُسْقَى ولا تُعلَف إلى أن تموت ، وكانت الجاهلية تزعُمُ أنَّ صَاحِبَها يُحْشَرُ عليها) .

قال : أيحِلّ ضربُ السَّفير ؟ قال : نعم ، والحَمْلُ على المستشير . (السَّفير : ما تساقط من ورق الشجر. والمستشير: الجمل السَّمين ، وهو أيضا الجمل الّذى يعرف اللاقِحَ من الحائل) .

والرّقيع : الأحمق الذى يتخرّق عليه رأيه حتى يَحْتاج إلى أن يرقّع ، ثم كثر حتى صار الرّقيع المَاجن القليل الحياء ، فأراد : أيرقُد عاقل تحت رقيع ؟ فقال : ما أحسن ذلك، إذا كان فى البقيع ؛ هذا معناه فى الظاهر، وما قصد به قد فسره . والبقيع فى الأصل : كلّ موضع فيه أصول أشجار مختلفة . التّهوّد : الدّخول فى دين اليهوديّة . عمارة أبيه : ما كان أبوه يعمره من دار يسكنها ومال يعمره . السَّفير : الرسول . المستشير : المسترشد الذى يستشيرك فى أموره والحمل عليه إهانته وظلمه . اللاّقح : الحامل بالولد ، والحائل : ضدّها .

* * *

قَالَ : أيُعَزِّر الرَّجُلُ أباه ؟ قال : يفعلُه البَرّ ولا يأباه . (التَّعزير : التّعظيم والنُّصرة والتوقير) .

قال : ما تقول فيمن أفقر أخاه ؟ قال : حبّذا ما توخّاه . (أفقره : أعاره ناقة يركب فقارها) .

قال : فإن أعْرَى وَلَدَهُ ؟ قال : يا حُسْنَ ما اعْتمده ! (أعْرَاه : أعطاه ثمرة نخلة عامًا) .

قال : فإن أصْلَى مملوكَهُ النّار ؟ قال : لا إثمَ عَلَيْهِ ولا عار . (المملوك : العَجين الذى قد أُجيد عَجْنُه حَتَّى قوِىَ) .

قال : أيجوز للمرأة أن تصرم بَعْلَهَا ؟ قال : ما حَظَرَ أحدٌ فعلها . (البَعْل : النّخْل الذى يشرب بعروقه من الأرض) .

قال : فهل تؤدَّب المرأة على الخجل ؟ قل : أجل . (الخَجَل : سوء احتمال الغنى ، ومنه قوله صلى الله وسلم للنساء : « إنّكن إذا جعتُنَّ دَقَقْتُنَّ ، وإذا شبعتُنَّ خجلتُنَّ ») .

قال : ما تقول فيمن نَحَتَ أثْلَةَ أخيه ؟ قال : أثِمَ ولو أُذِنَ له فيه . (نَحَتَ أثْلَته ، إذا اغتابه وقَدَح فى عِرْضه) .

يعزّر : يؤدّب ، والتّعزير : ضرب دون الحدّ . والبَرّ : المكرِم لأبيه . تورخاه : قصده ، وكذلك اعتمده . أصْلاَه : جعله فيها . تصرّم : تقطع وتباعد ، وأصل الصَّرْم القطع . بعلها زوجُها . حظر : منع . الخجَل : الاستحياء . وأراد بسوء احتمال الغنى ، أن تكون مبذِّرةً لمالها سفيهةً ، فكأنّ الغنى لمّا أتاها لم تحتملْه فأفسدته نحَت : نجَر . أثلة : شجرة .

* * *

قال : أيحجُر الحاكم على صاحب الثّور ؟ قال : نعم ، ليأمن غائلة الجور . (الثّوْر : الجنون) .

قال: فهل له أن يضرب على يد اليتيم ؟ قال : نعم ، إلى أن يستقيم .
(يقال : ضرب على يده ، إذا حَجَر عليه) .

قال : فهل يجوز أن يتّخذ له ربَضاً ؟ قال : لا ، ولو كان له رِضاً .
(الرَّبَض : الزوجة)

قال : فمتى يبيع بَدَنَ السّفيه ؟ قال حِينَ يَرَى له الحظَّ فيه .
(البَدَن : الدّرع القصيرة) .

قال : فهل يجوز أن يبتاع له حُشًّا ؟ قال : نعم ، إذا لم يكن مُغشًّى . (الحُشّ : النخل المجتمع) .

قال : أيجوز أن يكونَ الحاكم ظالمًا ؟ قال : نعم ، إذا كان عالمًا .
(الظّالم : الذى يشرب اللبن قبل أن يروّب ويخرُج زبَده) .

قال : أيُستقْضى مَنْ ليست له بصيرة ؟ قال : نعم ، إذا حسُنت منه السّيرة . (البصيرة : التّرس) .

قال : فإن تَعرّى من العَقْل ؟ قال : ذاك عنوان الفضل . (العَقْل : ضرب من الوشى) .

غائلة : ضَرر . الرّبض : بقاع من الأرض تباع وتشترى . الحُشّ : الكَنِيف . مغشًّى : يغشاه الناس ويدخلونه . البصيرة : اليقين والنّظَر السديد . السِّيرة : العادة . عُنْوان : دليل وعلامة .

* * *

قال : فإن كان له زَهْوُ جبّار ؟ قال : لا إنكارَ عليه ولا إكبار .

(الزهو : البُسْر المتلوّن . والجبّار : النخل الذى فات اليدو ضدّه القاعد) .

قال: أيجوز أن يكون الشّاهد مريباً ؟ قال : نعم ، إذا كان أَرِيباً. (المُرِيب : الّذى يكثر عنده اللبن الرائب) .

قال : فإنْ بان أنّه لاط ؟ قال : هو كما لو خاط . (لاطَ الحوض ، إذا طيّنه) .

قال : فإن عُثِر على أنه غَرْبَل ؟ قال : تُرَدّ شهادته ولا تُقبل . (غَرْبل ، أى قتل ، ومنه قول الراجز * ترى الملوك حوله مغربلة *

قال : فإن وضح أنّه مائن ؟ قال . هو وصفٌ له زائن . (المائِن ها هنا : الذى يَعُول ويكفى المئونة ، من مان يَمُون ، لا مِنْ مَانَ يَمِين) .

قال : ما يجب على عابدِ الحق ؟ قال : يحلَّف بإلَه الخلق . (العابد ها هنا : الجاحد. والحقّ: الدّين) .

قال : ما تقول فيمن فقأ عَيْن بلبل عامدا ؟ قال : تُفقَأ عينُه قولاً واحدا . (البُلْبل : الرّجل الخفيف) .

قال : فإن جرح قطاة امرأةٍ فماتت ؟ قال : النّفس بالنفس إذا فاتت . (القَطاة : ما بين الوَرِكَيْن) .

والزّهو : التكبّر والإعجاب . الأريب : العاقل . لاط : عمل عمل قوم لوط . وضح : تبيّن . مائن : كاذب . القَطاة : نوع من الحمام ، وفقأ العين: أخرجها . والبُلْبل : طائر .

* * *

قال : فإن أَلْقَتِ الحامِلُ حشيشاً من ضَرْبِهِ ؟ قال : لِيَكفَر بالإعناق عن ذنبه . (الحشيش : الجنين المُلْقَى ميتاً) .

قال: ما يجب على المختتِن فى الشرع ؟ قال : القطع لإقامة الرّدع. (المختتِن: نبّاش القبور) .

قال : فما يصنع بمن سرق أساودَ الدار ؟ قال : يُقطع إن ساوَيْن رُبْع دينار . (الأساود : الآلات المستعمله كالإجّانة والقِدْر : الجَفْنة) .

قال : فإنْ سَرَقَ ثميناً من ذَهَب ؟ قال : لا قَطْع كما لو غَصَب . (الثمين : الثُّمْن ، كما يقال فى النصف : نصيف ، وفى السُّدْسِ سَدِيس) .

قال : فإن بانَ على المرأة السّرَق ؟ قال : لاحَرَج عليها ولا فرَق (السَّرَق : الحرير الأبيض) .

قال . أينعقِدُ نِكاحٌ لم يَشْهَدْه القوارِى ؟ قال : لا والخالق البـارى . (القوَارِى : الشهود لأنهم يُقِرُون الأشياء ، أى يتّبعونها) .

قال: ما تقول فى عريسٍ باتت بلَيْلَةٍ حُرّة ، ثم رُدّتْ فى حَافِرتها بسُحْرَة ؟ قال : يجب لها نصف الصّدَاق ، ولا تلزمُها عِدّة الطلاق .

(يقال: باتت العروس بليلةٍ حرّة ، إذا امتنعت على زوجها ؛ فإن افتضّها قيل : باتت بليلة شيبـاء . والرّد فى الحافرة بمعنى الرجوع فى الطريق الأوّل ، وكَنَى به عن طلاقها قبل وِرْدها إلى أهلها) .

* * *

الحشيش: نبات يابس . الرّدْع : الكفّ والمنع . الأساود: الحيات . الثّمين: الرفيع الثمن .

القوارى : طيور خضر ، وقد بين هو أنه أراد بالقَوارى الشّهود . ويقال : المسلمون قوارى الله فى الأرض أى شهوده ، وقال جرير :

* المسلمون لِمَا أقولُ قَوارِى *

وبابت العروس بليلة شَيْبَاء ، إذا غشيها زوجها .

النفجديهى : رأيت : بخط الحريرى رحمه الله تعالى :

طيّبوها ولم أطيِّب بطِيبٍ ربّ منعٍ ألذّ من إعطاء
بتّ فى دِرْعِهَا وباتت ضجيعى فى بصـــير وليلة شَيْبَاء

المبصير هنا: قطعة من دم :

وقد أتينا على مافى هذه المسائل من الغريب فى الظاهر ، وأمّا مَاقصده من المعنى فهو مفَسّر فى الأصل ، ولقد أحسن أبو محمد فى هذه الفتاوَى وبلغ من الإقتدار والاتساع فوق المراد ، وإن كان لايوصف فيها الابتداع ، فقد أحسن فى الاتّباع .

[الملاحن والمعاريض]

والسابق إلى هذا المعنى أبو بكر بن دُريْد رحمه الله تعالى فى كتابٍ سمّاه بالملاحن ، وهى من اللّحْن ، وهو أن تورِّىَ بلفظ عن لفظ .

ثم تمم تلك الأغراض وحسّنها أحمدُ بن عبيد الله فى كتاب سَمّاه بالمنقذ[1].

وفائدة حفظ هذه الأغراض أن يخوّف الرجل أو يروِّعه أمير ظالم أومسلّط غاشم ، فيتخلّص منه بهذه المعاريض . فأما أن يقطَع بها حقّ مسلم فلاسبيلَ إليها ، ومعتَمدُهم فيهـا حديث عمران بن حصين أنّ النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن فى المعاريض مندوحةً عن الـكذب » .

(١) فى كشف الظنون : « المنقذ من الإيمان لمحمد بن أحمد البصرى ، المعروف بالعجيج مات سنة ٣٢٠ ، وهو يشبه الملاحن لابن دريد .

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عجبت لمن يُحْسِن المعاريض كيف يكذب ، ولمنْ لاحَن النَّاس كيف لايعرف جوامع الكلم ! »

وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم لطلائع المشركين حين لقُوه فى نفر من أصحابه ، فقالوا : ممّنْ أنتم ؟ قالوا : من ماء ، فتركوهم ، وأراد ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاء دافِقٍ ﴾[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى مُزاحه لإحدى عماته « إن الجنة لاتدخلها عجوز » ، فلمّا جزعت قال لها « إن الله تعالى يخلقهم يود القيامة أبكاراً » .

وقال لامرأة : « مافعل زوجُك الذى فى عينيه بياض »؟ فلمّا جزعت قال : « لها أو ليس فى كلّ عين بياض »؟

وقال له رجل : احْمِلْنى ، قال : ما عندى إلا ولد الناقة ، فقال : وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وهل الإبلُ إلا من النّوق ! » .

فاستُجيزت المعاريض على هذا النحو من المزاح أو التحويف .

ومن ذلك أنّ بعض العرب أُدخِل على الواثق ، وكان يقول بخلْق القرآن ويعاقبُ منْ خالفه ، فقال له ، ما تقول فى القرآنُ ، فتصامَم عليه ، فأعاد السؤال ، فقال : من تَعْنى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إيّاك أعنى ، فقال : مخلوق ـ يعنى نفسه ، وتخلّص منه .

وقال لآخر من الصالحين : ما تقول فى القرآن ؟ فأخرج يده ، وجعل يعدّ أصابعه ، ويقول : التّوراة والإنجيل والقرآن هؤلاء الثلاثة مخلوقة. فعنَى أصابعه ، وتخلّص منه .

---

(١) سورة الطارق : ٦

وتعذّر على رجل لقاء المأمون فى ظُلامة ، فصاح على بابه : أنا أحمد النبىّ المبعوث . فأدخل إليه ، وأعلِم إنه تنبَّأ فقال له : ما تقول؟ فذكر ظلامته ، فقال: له ما تقول فيما حُكِى عنك ؟ فقال : وما هو ؟ قال : ذكروا أنّك تقول إنّك نبى ، فقال: مَعاذ الله ، إنّما قلت: أنا أحمد النبىّ المبعوث ، أفأنت يا أمير المؤمنين ممّن لا يحمده ؟ فاستظرفه ، وأمر بإنصافه .

وخرج شُرَيح القاضى من عند زياد ، وتركه يجُود بنفسه ، فسأله الناس عن حاله ، فقال : تركتُه يأمر وينهى ، فجزعوا لسَلامَتِه ، فما راعهمْ إلا صياح النّائحات عليه . فسئل شُريح عن قوله ، فقال : تركته يأمر بالوصيّة ، وينهى عن البكاء .

وسُئِل ابن شُبْرمة عن رجل ليُسْتَعمل، فقال: إن له شرفاً وقدماً وبيتاً. فنظروا فإذا هو ساقط سفلة ، فقيل له فى ذلك، فقال: شرفُه أذناه ، وبيته الّذى يأوى إليه وقدَمه الذى يمشى عليه .

وقال صاحب المنقذ :

إذا حلفْت بالأيْمان اللازمة لك ، فانو بالأيمان الأيدى ، قال تعالى : ﴿ وعَنْ أيْمانهم وعن شَمائلهم ﴾ . فإن قلت : كلُّ امرأة طالق فاعْنِ الطّالق من الإبل ، وهى التى يطلُقها الراعى ، والطّالق الّتى يحمل عليها عِقالها .

فإن قيل : احلف بظَهار امرأتك كَظَهْر أمّك ، فاعْنِ بالظّهر ما يُرْكَب من الخيل والبغال والحمير ، ولا جناح عليه فى ركوب دوابّ أمه

فان قال: احْلِفْ بما لك على المسلمين صدَقة، فاعْنِ ما لك على المساكين من دَيْن ، وليس لك عليهم شىء .

فإن أحلفك بأنّ كلّ مملوك لك حرّ . فالمملوك : الدّقيق الملتوت بالماء أو الزيت أو السمن .

فإن قال: كلّ غلام لك حرّ . فالحرّ : الحيَّة الذَّكَر ، والحرّ من الرمل الّذى ماوطىء ، والحرّ: ذكر الحمام، قال حُميد.

* دَعتْ ساقَ حُرٍّ ترْحةً وترنّما *[1]

فإن أحلفك بأنّ كل جارية لك حرّة ، فالجارية السفينة ، والريح والشمس.

فإن قال : احلف وإلا كلّ أمة لك حُرّة ، فالحرّة الأذن ، والحُرّة السحابة الغزيرة المطر .

فإن أحلفك : وإلا فمالك حبس ، فحبس بلد معروف ، قال ابنُ حِلِّزة :

* لمن الديار عَفَوْن بالحبس *

فإن قال: وإلاّ فهو كافر . فالكافر الليل، أوالبحر أوالزرّاع للبَذْر ، قال الله تعالى : ﴿ أعجَبَ الكُفّارَ نباته ﴾[2] ، وأصله الساتر .

وتقول : كلّ امرأة تزوجتُها فقد طلّقتها بتاتاً. فتزوّجت اتخذتُ زوْجًا من النبات أى لونا ، وقال الله تعالى:﴿وأنبتْنَا فيها من كلِّ زوجٍ[3] بَهيج﴾ . وقال تعالى : ﴿فأخرجْنَا به أزواجاً[4] من نباتٍ شَتّى﴾، وطلّقتها ألبستها الطلق ، وهو قبة من جلود والنبات : الزاد .

وتقول : مانطيّبت ولاتمسّكت . فتطيّبت أتيت الطِّيب،وهو بلد بين واسط والسوس ، أو طَيْبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . وتمسّكت : لبست مَسْكا وهو الجلد ، أوتفعلّت من الامتساك .

وتقول : ماله قِبَلى درهم ولا دينار . فدرهم قبيلة من رَبيعة ، لهم خُطّة فى البصرة ، ودينار اسم رجل معروف .

---

(١) ديوانه ٢٤ ، وصدره :

* وماهاجَ هذا الشَّوق إلاّ حمامةً *

(٢) سورة الحديد ٢٠

(٣) سورة ن ٧

(٤) سورة طه ٣

وماله قَبَلي ثوب ولاَ شُقّة ولاقميص . الثّوب : الرجوع ، من ثاب يثُوب ، والشُّقّة : البعد . والقميص : غشاء القلب .

وماله قِبَلي شَيٌّ بوجه من الوُجوه ، ولابسبب من الأسباب . الشيّ : مصدر شويت اللحم . والوجوه صور مختلفة من التّصاوير . والوجه : المقصِد ، والجمع وجوه ، والأسباب : الحبال .

وما أوصيتُ إليه ، وما أوصى إليّ . أوصى دخل فى الواصِى ، وهو بيت متّصل بعضه ببعض .

ولا أعلم له داراً ولاعَقاراً ؛ فدارَا : بلد معروف بالجزيرة ، قال الشاعر :

ولقد قلتُ لرجْلِي بيْنَ حرّانِ ودَارَا[1]
اصبرى يارجْلُ حتّى يَرزُق اللهُ حِمَارا

والعَقار : النّخل .

ولا أعرف للمرأة بَعْلاً ولاَ وليًّا . فالبعْل : النخل أو الشجر ، يَشْرب بماء السحاب ، والوَلِيّ : بَلِي الوَسْمِيّ .

وتقول : ما اشتريتُ لفلانة ضَرّتك قميصاً ، ولا إزاراً ولا رداء ، ولا قِناعاً ولا غِلالة ، ولا حَلّيْتها خاتماً ولاَ خُلْخالاً ولا طوْقاً ولا سِوارا ؛ ولا قرّطتها ولاشنّفتُها ولا كسوْتها ، ولاجلست مع قَيْنة ولامغنّية ولاضاربة بعودولا بطبل ولارَباب ، ولاسمعت زَمّارة ولا ذقت نبيذاً فالقميص غِشاء القلب ، والرّداء السيف أو الدّين أوالغطاء ، والإزار : قُبُل المرأة أو جسم الرجل ، قال الشاعر :

• فدّى لك من أخى ثقة إزار[2] •

والإزار : العفاف ، والقِناع : جمع قَنَع ، وهو طبق يجعل عليه الفاكهة .

---

(١) دارا : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين — ياقوت

(٢) الشان — أزر ، من أبيات لجعدة بن عبدالله السلمى

وفى الحديث : إنّ[1] الربيع ابنة معوذ أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم بقِناع من رُطب وآخر من زَغَب فأكل منه ، والزّغب: القِثّاء . والفِلالة : مسمار من مسامير الدّروع ؛ قال :

* فهنّ وضاء صافياتُ الفلائلِ[1] *

والفِلالة: الجماعة من الناس ، والخاتَم: شعرات بيض فى قوائم الفرس. والسِّوار مصدر ساورت الرّجُلَ. والخلخال: الرّمْل الجريش . والطّوْق: المصدر من الطاقة، وقرّطْتُها من القُرْط، وهو العَلَف الرّطب تأكله الدّواب، فإذا يبس فهو القَتّ. وشَنَفْتُها جعلتُها مُشنَفة أى مبغَضة ، من شنفت الرّجُلَ، إذا أبغضتَه . وكسوتها : ضربت كُسَاها ، وهو جانبها ، وجانب كلّ شىء كساه والجمع أكساه ، والقَيْنة: هزْمة بين الوَرِكين وعُجْب الذّنَب من الفرس، والعُود الذى يُتبخّر به، والزّمّارة: الفاجرة، ومنه نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كسب الزمّارة ، والزّمّارة : الغُلّ، وفى خبر الحجاج: أتى سعيد بن جُبير وفى عنقه الزّمّارة، أى ساجور، والطبل: السّلة التى يجعل فيها الطعام ، والطّبْل: الخراج . والمغنّية : ناقة تضرب بنابها ، والرّباب : سَحاب متراكب قريب من الأرض. والنّبيذ : ما نبذته النعام أو الحمير بأرجلها من الحصى.

وتقول : مالى مركوب ومابعت عبداً ، وقد افتقرت حتى مافى مِلْكى نفقةُ يوم . مالى، بمعنى مِلْكى ، ومركوب : ضُربت ركبتُه ، وثنيّة بالحجاز . وعَبْد: جبل من جبال طيِّىء . وافتقر : اشتدّ فقاره أو كَسَر فقار جَدْى أوَحَمَل ، والمِلك : الحجة .

وتقول : ما أضعتُ عملكَ ولاقصّرتُ ولا أهملتُ ولا فرّطتُ ولاسامحتُ أحداً ، ولا تركتُ واجباً ، ولا ارتفقت بحبّه ، ولا أبقيتُ غايةً فى مناصحتك . أضعت : كثّرت ضياعى . وفرّطت : بعثت فارطا ، وهو طالب الماء ،

(١) ذكرها ابن حجر فى الإصابة ٤ : ٢٩٣ (٢) للنابغة ، ديوانه ٦٤ اللسان (علل) ، وصدره :

* عُلِينَ بِكدْيَوْنٍ وأبْطُنِ كُرَّةٍ *

وقَصَرت : بنيت قصراً . وأهمَلت : كثُرت هَواملى ، وهى الإبل السارحة فى المَرْعى بلا راعٍ . وسامحتُ : نظرتُ أيّنا أكرم . والواجب : السّاقط ، وارتفقت : نِمْتُ على مِرْفَقى ، والغاية : رايةُ الحمار .

وتقول : ماشتمت له أَبًى ولا عمًّا ولاعمّة ، ولا خالاً ولا خالة ، ولاصحبتُه ، ولا شاهَدْته ولا راسلتُه ، ولاشاربته ، ولا نادمتُه ، ولا رأيتُه منذدَهْرِ أَبَى : داء يأخذ المعزى ، قال :

* أبىَ لا إخال الضّأن منـــه نواجيًا[1] *

وعمّ : قطعة من الناس ، وقرية بالشأم ، والعمّة النخلة ، قال صلى الله عليه وسلّم : « نعمت العَمّة لكم النخلة » ، وقيل لها عَمّة لأنها خُلِقت من بقية طينة آدم عليه السلام . والخال : السحاب ، والخالُ من البُرود ، والخالُ من الخِيلان ، والخالةُ : جمع خالٍ من الكِبْر . وصحبتُه : منعته ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَاهُمْ مِنَّا يُصْحَبُون ﴾[2] ، أى يمنَعون . وشاهدته : أكلت معه الشَّهد ، وراسلته : شربت معه الرِّسْل ، وهواللبن ، وشاربته من الشوارب ، ونادمته من النَّدَم ، ورأيتُه : ضربت رئتَه ، ودَهْر : قبيلة من إياد .

وتقول : ما كتبتُ له حرْفًا ، ولاخططت له بقلم ، ولا شتمته ولا هجوته ، ولا افتريتُ عليه ، ولا أعرف عليه سوءا . الحرْف الناقة المضمَرة ، والقَلم : القِدْح ، قال الله تعالى : ﴿إِذْ يُلقُونَ أقلامَهم﴾[3] ، يعنى قِداح الميسر . والشّتْم : قبْح الوجه ، وهجوته : أزلت نعمتَه ، وهو الهَجَى مقصور ، وافتريتُ : لبست الفَرْو ، والسّوء : البرَص .

وتقول : رأيته فى السّوق متوفًّى مقبورا ، وما أخذ دواء ولامعجونًا .

---

(١) اللسان ــ أبى ، ونسبه لابن أحمر

(٢) سورة الأنبياء ٤٣ (٣) سورة آل عمران ٤٤

فالسوق : أصول الشجر وأعناقها . متوفّى دائماً . مقبوراً : مبخّراً بالعود الهندىّ الذى فيه قبر ، أى رخاوة . والدواء والدّاوية : جلدة اللبن ، والمعجون : المضروب على عِجانه .

وتقول : هو مجنون مُصاب ، قد غُلّ مراراً ، فما اعتذرتُ له ، ولا تنصّلت ، لأنه ليس من الأجواد ، ولا الشُّجعان الذين يُقدَح فى أنسابهم . المجنون : المستور . مصاب : مجدّر من صاب يصوب ، وغَلّ من الغُلّة ، واعتذر وتنصّل : اتخذ عِذارا وَنَصْلا . والأجواد : العطاش . والشّجعان : الحيّات ، والأنساب : أسنان المُشْط .

وتقول : رأيت الجيش بالثّغر ، والفارس فى الفوارس ، فما أفضّلُ عليه أحَداً من العرب والعجم . الجَيْش : الغَلَيان ، والثّغر : شَجَرٌ له شوك ، والفارس : الحسن الفِراسة ، والفوارس : كُثْبان رمل ، والعرب : فَساد المعدة ، وعَرِبَتْ معدتُه . والعَجَم : النّوى .

وما أكلتْ دابتى شعيرا . الشعير : جمع شَعيرة ، وهو مسمار من الفِضّة فى قائم السّيف .

والباب متسع وفيه تأنُّس لما ذكره أبو محمد .

* * *

ومن المعاريض ، أن الحجاج لما أخرَج ابنَ القبعثرَى من سِجْنه قال له : صمتَ يا غضبان ، قال : القَيْد والرّتْعَة[1] ، والخفض والدعة ، ومَنْ يكن ضيفَ الأمير يسْمَن ، قال : لأحملنّك على الأدهم ، قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والوَرْد والكُمَيت . قال : إنه حديد ، قال : لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً ، قال : اضربوا به الأرض ، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُم وفيها نُعيدكم ﴾[2] قال : جُرّوه ، قال : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾[3] ، قال : احملوه على الأيدى

(١) الرتعة : الانسلاع فى الخصب (٢) سورة طه ٥٥ (٣) سورة هود ٤١

فلمّا حمِل قال: ﴿ سبحان الذى سَخّر لنا هذا ﴾[1]، فضحك الحجاج وقال : غلبنا هذا الخبيث ، خلّوه إلى صفحى عنه ، قال : ﴿ فاصْفَحْ عَنْهم وقُلْ سَلامٌ ﴾[2].

وقال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن عمرو الغسّانى ـ وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة ـ من أين أقصى أثرك ؟ قال : من صُلْب أبى ، قال : مِنْ أين خرجت ؟ قال: من بَطْن أمى ، قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض ، قال : ففيم أنت ؟ قال : فى ثيابى ، قال : أتعقل لا عقلت ! قال : إى والله وأقيّد ، قال : ابنُ كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد ، قال : فما سنّك ؟ قال : عَظْم ، قال : ما تزيدنى مسألتك إلاّ عِيًّا ، قال : ما أجبتك إلا عن مسألتك .

الربيع بن عبد الرحمن ، قلت لأعرابىّ : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إنى إذاً لَرَجل سوء ؛ أراد قوله : ﴿ هَمّازٍ مَشّاء بنميم ﴾[3]، قلت : أتجرّ فلسطينَ ؟ قال : إنى إذاً لقَوىّ !

خلف الأحمر : قلت لأعرابىّ: ألقى عليك بيتاً ؟ قال : على نفسك فألقِه .

قيل لأعرابى : أتهمز الفأرة ؟ قال : الهرّ يهمزُها .

ودخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن يزيد الهلالى عامل إرمينيَة ، وقد بات على قربٍ من غدير فيه ضفادع ، فقال عبد الله : ما تركتْنا شيوخ محارب ننام فى هذه الليلة لشدة أصواتها . فقال المحاربىّ : أصلح الله الأمير ! إنها أضلّت برقعاً ، فهى فى بُغائه . أراد الهلالىّ قول الأخطل :

تنقُّ بلا شىء شيوخ محاربٍ وماخِلْتها كانتْ تَرِيشُ ولا تَبْرِى[4]
ضَفادعُ فى ظَلْماء ليــلٍ تجاوَبَتْ فدلّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

(١) سورة الزخرف ١٣ .
(٢) سورة الزخرف ٨٩
(٣) سورة القلم ١١
(٤) ديوانه ١٣٢

وأراد المحاربيّ قول الآخر :

لِكُلِّ هِلالِيٍّ من اللؤم برقعٌ ولابن هلالٍ برقعٌ وقميصُ

وهذا النحو من التعريض كثير .

وقال أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى :

يا ضَرّة الشمس التى أشرقتْ قد أشرقتْ حجّة مُشْتاقِكْ
لَحْظُك أو خَصْرُك قد ضَمِنا ما ضمنتْ عهدةُ ميثاقِكْ
ثأرُ الهوى يطلبه ثائرٌ مصرعه ما بين أحداقِكْ
لا تذْخرى أنفَس صوتٍ فقد يُرْغَبُ فى أنفس أعْلاَقِكْ
رفقًا بمَنْ مُلِّكته فى الهوى فإنه آخرُ عُشّاقِكْ

فأنفس أعلاق المرأة معلوم ، والظّرف كلّه فى قوله : « فإنه آخر عُشّاقك » يعرّض أنها أسنّتْ فلا عاشق لها من بعده . والقينة : التى داعبها وما زحها تفهم ما خوطبت به ، لأنها تلميذة ولاّدة بنت المكتفى ، وولاّدة شاعرة بارعة التّنْدير ، فمن تندّرها قولها فى ذى الوزارتين ابن زيدون عاشقها تعرّض له بشىء كان يُزَنّ به :

ما لابن زيدون على فَضْلِهِ يغتابنى ظلمًا ولا ذَنْبَ لِى[1]
يلحظنى شَزْرا إذا جئتُه كأنّما جئت لأخصِى عَلِى

وعَلِىٌّ صَبِيُّه ، وكان يمزح معه .

. . .

فقال له السّائل : لِلّه دَرُّكَ من بحرٍ لا يُغَضْغِضُه الماتح ، وحَبْر لا يبلُغُ مدحَه المادح ؛ ثمّ أطرَق إطراقَ الحَيِيّ ، وأرمّ إرمام

(١) تمام المتون ١١٠ .

العَيِيّ . فقال له أبو زيد : إيه يا فتى ! فإلى متى وإلى متى ! فقال : إيهِ لم يبْق فى كنانتى مِرْماة ، ولا بَعْد إشراقِ صُبْحِكَ مماراة ؛ فباللهِ أىّ ابنِ أرْضٍ أنت ؟ فما أحسن ما أبَنْت ! فأنشدَ بلسانٍ ذَلِقٍ ، وصوتٍ صَهْصَلِقٍ :

أنا فى العالم مُثْـــلهْ ولأهل العِلْمِ قِبْلَهْ
غَيْرَ أنى كُلَّ يومٍ بَيْنَ تَعْرِيسٍ ورِحْلَهْ
والغريب الدار لو حَـــلّ بطُوبَى لم تَطِبْ له

ثمّ قال : اللهمّ كما جَمَلْتنا ممن هُدِىَ ويَهْدِى ، فاجعلهم مِمَّنْ يهتدِى ويُهدِى .

فساق إليه القومُ ذوْدًا مع قَيْنَةٍ ، وسألوه أن يَزُورَهُمْ الفيْنة بعد الفيْنة . فنهض يُمَنِّيهِمُ العَوْد ، ويُزجِّى الأمَة والذَّوْد .

. . .

قوله : ينغضُّه : ينقصه . الماتح : المستقى من أعلى البئر ، والمائح ، بالياء من قعرها . حَبْر : عالم . أطرق : أمال رأسه ساكتاً . وأرمّ : سكت . العيىّ : الذى إن كلّمتَه لم يُحْسن ردّ جوابه . إيه : بمعنى زدنى من سُؤالك .

ابن السرىّ : إذا قلت : « إيهِ يارجل » ، فإنما تأمره أن يزيدَكَ من الحديث المعهود بينكما ، كأنك قلت : هات الحديث ، وإن قلت إيهٍ : بالتنوين ، فكأنك قلت : هات حديثاً ما ، فإلى متى سكوتك ؟ مرماة : سهم يرمى به السَّبْق ، وقيل : هو سهم مدوّر النّصل . بعد إشراق صبحك ، أى بعد ظهور فضلك . وإشراق ضوء . مماراة : شك . أبنْت : بيّنت . ذَلِق : حديد . صَهْصَلِق : شديد .

مُثلة : مغيّر الخلق ، فهى « فُعْلَة » من المثل ، ويقال المُثْلة والمثل بمعنى .

* * *

[ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم]

ونذكر على قوله : « أنا فى العالم مثلة » ، فصلاً فى ذكر قباحِ الوجوه من العلماء وغيرهم .

فمنهم الجاحظ ، وأراد المتوكل أن يعلِّم بنيه الثلاثة ولاة عهده ، فأدخِلَ عليهم ، فارتاعوا من قبح وجهه ، فأخرِج عنهم بعنف .

وحكى المسعودىّ : أنّ الجاحظ قال: ذُكِرْتُ للمتوكّل لتعليم بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم[1] وصَرَفنى .

وقال الحمدونىّ :

لو يُمسَخُ الخِنزيرُ مسخاً ثانياً لرأيتَه فى دون قُبحِ الجاحِظِ[1]
رجُلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه وهو العدوّ لكلّ عينٍ لاحظِ

قال الأصمعىّ رحمه الله : دخلتُ يوما على جعفر بن يحيى ، فقال لى : هل لك يا أصمعىّ من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟ قلت : للمهنة ، قال : فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة ؟ ، قلت : إنى لمحتاج إلى ذلك . فأمر بجارية فأخرِجَتْ وهى فى غاية الحسن والجمال والهيئة والظَّرف ، فقال لها : قد وهبتُك لهذا ، وقال لى : خذ هذه ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيّدى ، أتدفعنى لهذا الشيخ مع ما أرى من سَماجَتِك وقبح منظره ! وجَزِعَتْ جزعاً شديداً ، فقال لى : يا أصمعىّ ، هل لك أن أعوّضك منها ألفَ دينار ؟ فقلت : ما أكره ذلك ، فأمر لى بها ، ودخلت الجارية ، فقال لى : يا أصمعىّ ، أنكرت عليها شيئاً ، فأردت عقُوبتَها بك ، ثم رحِمتُها منك ، فقلت : أيّها الأمير ، أفلا

(١) نسبهما الثعالبي فى ثمار القلوب ٤٠٤

أعلمتنى قبل ذلك ، فإنى لم آتك حتى سَرّحتُ لحيتى ، وأصلحت وجهى وعِمّتى ، فلو عرفتُ الخبر لسرت على هيئتى وخِلقتى ، فوالله لو رأتنى كذلك لما عاودتْ شيئاً تنكره أبداً .

وما ضرّ من ذكرنا قُبْحَهم مع العلم الذى زيّنهم الله به ، وكذا ينبغى لِمَنْ خُلِق قبيح الصورة أن يستعمل لها الأخلاق الحِسان ، والأفعال الحسان ، لئلاّ يجمع بين قبيحين .

كان الأوْقص المخزومىّ أقبح الناس خِلْقة ، وما رُوِى مثله فى العفاف والزهد . وكان قاضى مكة ، فقال يوما لجلسائه : قالت لى أمّى : يا بنىّ إنك خُلِقت خِلقةً لا تصلُح معها لمجالسة الفتيان فى بيوت القيان ، فعليك بالدِّين ، فإنّ الله تعالى يرفع به الخسيسة ، ويتمّ به النقيصة . فنفعنى الله بكلامها ، فوُلِّيت القضاء .

وروى أن أمّ مالك بن أنس أوصته بمثل هذه الوصية ، حين أراد أن يتعلّم الغناء فى حَدَاثته ، فتركه وتعلّم العلم ، فذهب به حيث بلغ .

وكان عطاء بن أبى رَبَاح أعور أسود أفطس أشلّ أعرج ، ثم عَمِىَ . وأمّه سوداء تسمّى بَرَكة ، وقيل لأهل مكة بعد موته : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم ؟ قالوا : كان مثل العافية التى لا يُعرَف فضلها حتى تُفْقد .

وكان فى خلقة أبان بن عثمان كلّ عَيب ، وكان يُضْرَب بعُيوبه المثَل فى المدينة .

كان معن بن زائدة أميرَ اليمن يوماً جالساً إذ أتته امرأة من بنى سَهْم ، ومعها ابن صغير يتبعُها ، ويطأ أذيالها ، فقالت : أصلح الله الأمير ! إن عَمّى زوّجنى مَنْ ليس بكفء ، فقال : مَن هو ؟ فقالت : ابن ذى مناجب ؟ فقال : علىّ به ، فدخل أقبح مَنْ خلق الله ، وأشوههم خَلْقاً ، فقال : مَنْ هذه منك ؟

قال : امرأتى ، قال : خلّ سبيلها ، ففعل ، فأطرق معن ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لَعَمْرِى لقد أصبحتُ غير محبَّبٍ ... ولا حسنٌ فى عينها ذو مناجبِ
فما لُمْتُها لمّا تبيَّنت وجهه ... وعيناً له خَوْصاء من تحت حاجب
وأنفاً كأنفِ البَكْرِ يقطرُ ناتئاً ... على لحية عَضْباء منه وشاربِ
أتيت بها مثل المهاة تَسُوقها ... فياحسنَ مجلوب ويا شرّ جالبِ

وكان تزوجها بمكة وقدم بها اليمن . والصبىّ هو ابن جامع المغنّى المشهور .

وحكى البحترئ فى نوادره عن رجل سمّاه قال : مررت بامرأة من أجمل الناس ، معها رجل من أقبحهم ، فقلت لها : يا أمَة الله ، مَنْ هذا منك ؟ قالت : رجُلَيه ، فقلت : ومَنْ قَرَنك به ؟ قالت : أخيه ، فقلت :

جزى الرحمن عنك أخاك شرًّا ... فقد أخزاك فى الدنيا وزادَا
فلم أرَ مُغْزِلًا قُرِنَتْ بكابٍ ... ولا خزًّا بطانته بجادا

وقال آخر :

ألا رُبَّ بيضاء المحاجرِ طَفْلةٍ ... تُساق إلى وَغْدٍ من القوم تنبالِ
يقولون جرّتْها إليك قرابةٌ ... فويح العذارى من بنى العمِّ والخال !

وقال آخر :

لابن عبد النور وجهٌ ... صار للقُبْحَ ملاذا
قال قرد إذْ رآه ... لعنة الله على ذا

وقال فى بشار :

تُوائب أقماراً وأنتَ مشوّهٌ ... وأقرب خلق الله من شَبَهِ القِرْدِ

وكان بشار ضخماً قبيح الوجه ، جاحظ الحدَقتين ، أقبح الناس عمًى ومنظراً فقال فيه حمّاد عجرد :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنى الـ ـذى والدُهُ بُرْدُ[1]
إذا ما نُسِبَ النَّاس فلا قَبْلٌ ولا بَعْـد
وأعمى يشبهُ القِرْدَا إذا ما عَمِىَ القِرْدُ

فقال بشار عندما سمع هذا البيت : ما أخطأ ابن الزانية من حين شبّهنى بقرد وجعل يبكى ويقول : ما حيلتى ! يرانى ويشبّهنى ، ولا أراه فأشبهه ! وبعده :

ولو تُلقِيـهِ فى صَلْدٍ صفًا لانصَدعَ الصَّلْدُ
هو الـكلب إذا ما ما ت لم يُوجَدْ له فَقْدُ

وأنشده رجل قول حماد :

دُعيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغيره وهبك ابْرُدٍ نـكتُ أمك من بُرْدِ

فقال : هاهنا أحد ؟ قال: لا ، قال: أحسن والله ابن الزانية ، ولقد نَهَيْتَ له فى بيت واحد علىّ خمسةَ معانٍ من الهجو ، وهى : « دعيتَ إلى برد » معنى . « وأنت لغيره » معنى ثان ، و « هبك لبرد » معنى ثالث ، « نـكت أمك » شتم واستخفاف مجرّد ، وهو معنًى رابع ، ثم ختمها بقوله : « من بُرْد » فأتى بالطامّة الـكبرى .

وأوجعُ ما مرّ عليه من قول حماد :

لو طُلِيتْ جـلدتُه عَنْبراً لأفسدَتْ جِلْدَتَه العَنْبَرا[2]
أو طُلِيتْ مِسْـكاً ذكيًّا إذًا تحوّل المسك عليـه خَرَا

كان حفص بن أبى بردة[3] أفطس أعفص مقبّح الوجه ، وكان حماد صديقه ، فتناشدوا الشعر يوما ، فطعن حفص على مرقّش ، فقال حماد :

لقد كَانَ فى عينيك ياحفصُ شاغلٌ وأنف كَثِيل العُودِ عمّا تتبّع[4]

(١) الشعر والخبر فى الأغانى ١٤ : ٣٢٩ (٢) الاغانى ١٤ : ٣٣١
(٣) ط : « وردة » تصحيف . (٤) الأغانى ١٤ : ٣٥١ .

تَتَبَّعُ لحناً فى كلام مرقّش ووجْهك مبنىٌّ على اللحْنِ أجمعُ
فأذناك إقواء وأنفك مُكْفَأٌ وعيناك إيطاء ، فأنت المرقَّعُ

أخذ تشبيه الأنف بالنِّيل من قول كَعْب فى الوليد بن عبد الملك :

فَقَدْتُ الوليدَ وأنفاً له كنِيل البَعيرِ أبى أنْ يبولاَ

قال أبو زيد : رأيت أعرابيًّا كأنّ أنفه كوزٌ من عِظَمه ، فرآنا نضحك ، فقال لنا : ما يضحككم ! فوالله لقد كنتُ فى قومٍ يسمُّونى الأفطَس .

وقال الشاعر :

إذا أنت أقبَلْت فى حاجةٍ إليه فكلّمه من خلفِهِ
فإن أنت واجهتَه بالكلا م لم يُسمع الصَّوْت من أنفِهِ

وقال آخر :

إنّ عيسى أنف أنفهِ أنفه ضِعف لِضَعْفِه[1]
لو تراه راكباً والـ ـأنفُ قد جال بعطفِهِ
لرأيت الأنف فى السَّر ج وعيسى رِدْفُ أنفِهِ

وقال الحسن فى جعفر بن يحيى :

ذاك الوزير الذى طالت علاوته كأنّه ناظرٌ فى السيف بالطول

وقال أبو علىّ الخليع[2] :

سابور وَيْحك ما أخَسَّك بل أخَصّك بالعيوبِ !
وَجهٌ قبيح فى التبسّم كيف يحسُن فى القطوبِ !

كان جحظة البرمكى ناتئ العينين جدًّا ، قبيح الوجه ، فقال فيه ابن الرومىّ :

نبئتُ جحظة يَستعير جحوظَهُ من فيل شِطْرَنْجٍ ومِنْ سَرَطَانِ[3]
يا رحمةً لمنادميه تحمّلوا ألم العيون لِلَذَّةِ الآذان

(١) ذيل زهر الآداب ٢٨١
(٢) هو الحسين بن الضحاك ، والبيتان فى ديوانه ٢٩
(٣) ذيل زهر الآداب ١٩٨

وكان طيّب الغناء ، وحضر مجلسه عليّ بن بسام ، فتفرّق القوم المخادّ ، فقال جحظة : مالى لا أُعْطَى مخدّة ؟ فقال له ابن بسام : غنّ فالمخادّ كلها إليك تصير ، وقال فيه :

يا مَنْ هجَوْناه فغنّانا أنت وحقّ الله أهْ جَانا
سيّان إن غنّى لنا جحظةٌ أو مرّ مجنون فزنّانا

وله فيه أيضاً :

لجحظة الحسن عندى يد أشكرها منه إلى المحشر
لمّا رآنى ردّ بِرْذَوْنَهُ وصانني عن وجهه المُنكَر

كان الخطيئة قبيح المنظر ، كثير الشرّ ، فالتمس يوما إنسانا يهجوه فلم يجد ، فجعل يقول :

أبتْ شفتاىَ اليومَ إلاّ تكلّماً بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائلُهْ[1]

فاطّلع فى ماء فرأى وجهه ، فقال :

أرَى لِيَ وَجْهاً قبّح الله شخصَه فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّحَ حامله

نظر إلى هذا إسماعيل بن معمر القراطيسىّ فقال :

ويْلِي على ساكن شطّ الصراة من وحنتيه شمتُ برق الحياهْ[2]
ما تنقضي من عَجَبٍ فِكْرَتى من خصلة فرّط فيها الولاهْ
ترك المحبّين بلا حاكمٍ لم يقعدوا للعاشقين القصاه
وقد أتانى خبرٌ ساءنى مقالها فى السرّ : واسوءتاه !
أمثل هذا يبتغى وصلَنا أما يرى ذا وجْهَهُ فى المِرَاهْ !

وقال الأصبهانىّ : إن القراطيسىّ سأل العباس بن الأحنف فقال له : يا أبا الفضل ، هل قلتَ فى معنى قولى هذا شيئاً ؟ فقال : قلت :

(١) ديوان الخطيئة ١٢٠ . (٢) الاغانى ٢٠ : ٨٨ ، ٨٩ — ساسى

جاريةٌ أعجبها حُسْنُها ومثلُها فى النّاس لم يخلقِ[1]
خبّرتها أنى محبٌّ لها فأقبلتْ تضحك من منطقى
والتفتتْ نحو فتاةٍ لها كالرّشأ الوَسْنانِ فى قَرْطَقِ
قالت لها قولى لهذا الفتى: انظر إلى وجْهك ثم اعشقِ

وقال الصّقلىّ فى صفة عذول قبيح :

رأى وجه مَنْ أهوى عذولى فقال لى أجلّك عن وجهٍ أراه كريها
فقلت له بل وجه حِبّى مرآةٌ فأنت تَرَى تمثالَ وَجْهِك فيها

ولابن القابلة السّبْتى :

ووجه حبيبٍ رقّ حسنا أديمُه يرى الصبُّ فيه وجهه حين ينظُرُ
تعرّض لى عند اللقاء به رشًا تكاد الحُمَيّا من محيّاه تقطرُ
ولم يتعرضْ كىْ أراه وإنما أرادَ يُرينى أنّ وجهَكَ أصفرُ

ولبعض المصريين فى غلام يهواه :

يجرى النّسيم على غِلالة خدّه وأرقّ منه ما يمرُّ عليهِ
ناولته المرآة ينظر وجْهَهُ فعكست فتنةَ ناظرَيْهِ إليهِ

وقال الرّمادىّ :

وإذا أراد تنزُّهًا فى روضة أخذ المراةَ بكفّه فتنزّها

كان للفضل بن سهل وصيفة ظريفةٌ كثيرة المُلَح والنّوادر ، وكانت ساقيتَه ، وكان أبو نواس يولع بها ويمازحها ، فقال لها يوما : إنى أحبّك وتبغضيننى فلم ذلك ؟ فقالت له : وجهُك والحرام لا يجتمعان ، فقال :

(١) ديوانه ٢٠٣

مذكّرة مؤنثة مَهاةٌ إذا برزتْ تشبّهاغلاما[1]
تَعافُ الماء والعَسلَ المصفّى وتشرب من فتُوّتها المُدَاما
تقول للحظها[2] ياسيفُ أبْشِر ستروى من دم وتشقّ هامَا
وقائلةٍ لها فى وجه نصحٍ علام قتلتِ هذا المستهاما ؟
فكان جوابها فى حسن مسٍّ:[3] أأجمع وجه هذا والحراما !

ومن ملح ابن لنكك فى أهاجى أبى رياش :

على القبح الفظيع أبو رياشٍ يعاشرنا بأخلاقٍ ملاحِ[4]
يُبيح أكفّنَا أبدا قفاه فنصفَعُه على وَجْهِ المزاحِ

وله فيه أيضاً :

قل للوضيع أبى رياشٍ لا تبلْ تِهْ كلّ تيه بالولاية والعملْ[4]
ما ازددت حين وليتَ إلا خسّةً كالسكلب أنجس مايكون إذا اغتسل

* * *

قوله : تَعريس ، أى نزول آخر الليل . يهدى : الأول يرشد ، ويدلّ على الطريق ، ويقال: هداه يَهْدِيه هدًى فى الدِّين ، وهداه يهديه هِداية فى طريق . يَهْدِى: يعطى هدية ، ويقال : أهداه هدِيّةً يُهديها إهداء ، إذا أعطاها . الذّود : مابين الثلاث إلى العشر من الإبل ، ولا تكون إلاّ إناثاً . قَيْنَة : جارية مغنية ويقال: القَيْنة الأمَة ، كانت مغنّية أو غيرَ مغنّية . القينة :الساعة والحين ، ويقال : إنى لآتيه القَيْنة بعد القَيْنة ، وقينة بعد قَيْنة ، يستعمل بالألف واللام وبتركهما ، أى أديم الاختلاف إليه الحين بعد الحين والوقتْ بعدَ الوقت . يُزَجّى : يسوق . السَّفيه : البطّال المشتغل باللهو .

---

(١) ديوانه ٣٩٢ .
(٢) الديوان : « لسيفها »
(٣) الديوان : « سر »
(٤) اليتيمة ٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٧

قال الحارث بن همّام : فاعترضْتُه ، وقلت له : عَهْدِى بكَ سَفيهاً ، فمتى صرت فقيهاً ! فظلّ هُنَيهةً يجول ، ثم أنشأ يقول :

لَبِستُ لِكُلِّ زمانٍ لَبُوسا
ولا بستُ صَرْفَيْهِ : نُعمَى وبُوسا
وعاشَرْتُ كلَّ جليسٍ بِما يُلائمُهُ لأروقَ الجليسا
فعِنْد الرُّواةِ أديرُ الكلامَ وبينَ السُّقاةِ أديرُ الكئوسا
وطوراً بوعْظِى أُسيلُ الدُّموعَ
وطَوْراً بِلَهْوِى أسُرُّ النُّفُوسا
وأَقرِى المسامعَ إمَّا نَطَقْتُ بياناً يقودُ الحرُون الشَّمُوسا
وإن شئتُ أرْعَفَ كفِّى اليراعَ
فساقطَ دُرًّا يُحَلِّى الطُّروسا
وكم مشكلاتٍ حَكَكْنَ الشُّها
خفاء فصِرْنَ بكشفِى شُمُوسا
وكم مُلحٍ لى خَلَبْنَ العقولَ وأسأرْنَ في كلِّ قلبٍ رسيسا
وعَذْراء فُهْتُ بِها فانثنَى عليها الثَّناء طليقًا حَبِيسا

* * *

هنيهة : سويعة ، تصغير هنة ، ويقال فى تصغيرها هُنيّة وهُنيَهة ، كما تصغّر سنة سُنَيّة ، وسُنَيْهة . يجول : يتصرّف . لبوسا : ثوباً يشاكله ، أخذه من قول النابغة :

البِس لكلّ حالة لبوسَها إما نعيمَها وإمّا بوسَها

لابست : خالطت . صَرْفَيْهِ : حاليْه من الخير والشر . عاشرت : صاحبت . يلائمه : يوافقه . أروق : أعجب ، والصَّرْف اسم لحادث الدهر ، لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها . طورًا : مَرّة . أقْرِى المسامع : أعطى الآذان ، وأجمل فيها البيان . إمّا نطقْت ، أى إن نطقت . الحَرون : الذى يأبى المشى والانقياد . الشَّمُوس : الذى إذا نخس وثب ، وقيل : الذى يمنع الركاب . اليَرَاع : الأقلام : أرعفها : أسالها بالمداد . يُحْلِى : يزيّن . الطّروس : الكتب ، سُمّيت بذلك لأنها ممحوّة ، والمطروس : المحُوّ . قال رؤبة :

* كما رأيت الطَّلَل المطروسا *

[مما قيل فى وصف القلم]

وعلى ذِكْر اليراع قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمىّ فى قلم :

وأهيفَ طاوى الكَشْحِ أسمرَ ناطقٍ له جَولاَنٌ فى بطون المهارقِ[1]
كأنّ اللآلى والزَّبَرْجد نُطْقَهُ ونَوْرَ الخُزامَى فى عيون الحدائق
إذا استعجلته الكفّ أمطر خالُهُ بلا صوت إرعاد ولا صوب بارقِ

وقال ابن عبد ربه :

بكفّه ساحرُ البيان إذا أدَارَه فى صحيفةٍ سَحَرا[2]
مهفهفٌ تَزْدَهِى به صحفٌ كأنما حُلِّيتْ به دُررا
يكاد عنوانها لروْعَتِه يُنْبيك عن سرّها الذى استترا

وقال التّهامىّ :

يَلْقَى العِدَا من كُتْبِه بكتائبٍ يجرِّرْنَ من زَرَدِ الحروف ذُيُولاَ[3]

(١) العقد ٤ : ١٩١ ، أدب الكتاب ٨١ . (٢) العقد ٤ : ١٩٣ .
(٣) ديوانه ٣١ .

فترى الصحيفة حِلْيَةً وَجِيَادَها أقلامَهُ وسَرِيرهنّ صَهِيلا
فى كفِّه قلم أتمُّ من القنا طولاً وهنّ أتم منه طولا

وله أيضاً :

وإذا راش بالأنامل منه قلماً واستمدّ ساء وَسرّا[1]
قلمٌ دبّر الأقالـيم حتّى قال فيه أهلُ التناسخ إمْرَا
يتبع الرمحُ أمرَه فابن عشرين ذراعاً بالرأى يخدُم شبرَا

السها : نَجْم خفىّ . خَلَبنَ : خدعن . أسأرْنَ : أبقين ، والسؤر : البقية . وفى الحديث : « إذا أكلتم فأسئروا » ، وأخذت سائره ، معناه بقيّته . الرسيس : أوّل بَرْد الحمّى ، يريد أن هذه المُلَح لعذوبتها إذا حلّت فى القلب أحدثت فيه حَرَكة وهِزّة ، وإذا سمع ذو الذكاء كلاماً مستظرفاً من نثر أو نظم وجد له دَبِيباً وقشعريرة . وأخذ « وكم مشكلات » ، من قول على رضى الله عنه :

إذا المشكلات تصدَّيْنَ لى كشفتُ حقائقها بالنَّظَرْ[2]
وإن برقت فى مخيل الصَّوا ب عمياء لا يجتليها البَصرْ
مقنَّعةً بغيوب الأمور وضمتُ عليها صحيح الفكرْ
لساناً كشِقْشِقَةِ الأرحَبِىّ أوْ كالحسام اليمانىّ الذَّكَرْ
وقلبا إذا استنطقَتْه الغُيُوبُ أمرَّ عليها بِوَاهى الدَّرَرْ

عذراء : قصيدة بِكْر ، لم يُسبق إليها . فُهْت : نطقت . انثنى : رجع . طليقاً : منتشراً فى الناس . حبيساً : موقوفاً عليها لا يتعدّاها لغيرها .

[ذكر مدح الشعراء للشعر]

ومدْح الشعراء للشعر باب شأوه بعيد ، وسنذكر لحبيب ـ وهو المبرّز فيه ـ

(١) ديوانه ٣٩ (٢) ديوانه ٢٢ ، ٢٣ ، زهرة الآداب ٤٠

ولغيره ما يستحسن ويُستجاد ، قال حبيب :

جاءتْكَ من نَظْمِ اللِّسان قلادةٌ ... سِمْطَانِ فيها اللُّؤْلؤ المكنُون[1]
حُذِيتْ حذاء الحَضْرَمِيّة أُرهفَتْ ... وأجادَها التَّخْصِيرُ[2] والتبيينُ
إنسيّة وحشيّة كَثُرتْ بها ... حركاتُ أهل الأرض وهي سكونُ
أمّا المعانى فهى أبْكَارٌ إذا ... فُضّت[3] ولكنّ القوافىَ عُونُ

وقال أيضاً :

فوالله لاأنفك أهدى قصائداً ... إليك يحمِلْنَ الثّناء المبجّلا[4]
يُحاك بها بُرْدٌ عليك مجدَّدٌ ... وتحسبه درًّا عليك مُفَصَّلا
ألذّ من السّلْوَى وأطيب نَفْحَةً ... من المسك مفتوقًا وأيسر محملا
أخفّ على سمعٍ وأثقلَ قيمةً ... وأقصرَ فى سَمْعِ الجليس وأطْوَلاَ

وقال البحترىّ :

تَطُوعُ القوافى فيكمُ فكأنّما ... يطير إليكمْ من عُلُوّ قصيدُها[5]
وكم لىَ من محبوكةِ الوشىِ فيكمُ ... إذا أنشدت قام امرؤٌ يَسْتَعِيدُها

وقال أيضاً :

ألستُ الموالى فيكَ نظمَ قصائدٍ ... هى الأنجم اقْتَادَتْ مع اللّيل أنجما[6]
ثناء تخالُ الروض منه منوِّرًا ... ضحًى وتخالُ الوشى فيه مُسَهَّما

وقال أيضاً :

إليك القوافى نازعاتٍ قواصدًا ... يُسَيِّرُ ضاحى وشيها ويُنمْنِمُ[7]

(١) ديوانه ٣٣٠ ، ٣٣١ (٢) ط : « التحصين » وصوابه من الديوان .
(٣) الديوان : « نصت » . (٤) ديوانه ٢٥٥ (٥) ديوانه ٦٥٥
(٦) ديوانه ١٩٨٤ (٧) ديوانه ١٩٣١ .

ومشرقةٍ فى النَّظْم غُرًّا يزيدُها بهاء وحسنا أنّها لك تُنظَمُ
ضوامِنُ للحاجات إمّا شوافعاً مشفّعةً ، أو حاكماتٍ تُحَكَّمُ

وقال علىّ بن الجهم :

ولكنّ إحسان الخليفة جعفرٍ دعانى إلى ما قلت فيه من الشِّعر[1]
فسار مسيرَ الشمس فى كلّ بلدةٍ وهبّ هبوبَ الريح فى البرّ والبحرِ

ولابن الرومى يهجو :

خذها إليك مَنيحةً سيّارةً فى النّاس من بادٍ ومن متحضّرِ
تغدو إليك بحاصبٍ وبتاربٍ وعلى الرّواة بلؤلؤ متحيّرِ

وقال السرىّ الموصلى :

أتتك يحول ماء الطبع فيها مجالَ الماء فى السَّيْفِ الصَّقِيلِ[2]
قوافٍ إن ثَنَتْ للمرء عِطْفاً ثنى الأعطافَ فى بُرْدٍ جميل

وقال أيضاً[3] :

شرِقتْ بماء الطبع حتى خلتُها شرِقت لرونقها[4] بِتِبْرٍ ذائبِ
ويقول سامعها إذا ما أُنشِدت أعقود حَمْدٍ أم عقود كواكبِ

وقال أيضاً :

ألفاظُها كالدرّ فى أصدافِهِ لا بَل تزيدُ عليه فى لألائه[5]
من كلّ رائعة الجمال كأنّما جاد الشّباب لها برونق مائِهِ
والشعر بحرٌ حُزْتَ أنفسَ دُرِّهِ وتنافس الشعراء فى حَصْبائِهِ

---

(١) ديوانه ١٤٧ (٢) ديوانه ٢١٨
(٣) ديوانه ٢٣ (٤) الديوان : «لريقها» (٥) ديوانه ٥

وقال أيضاً :

لفظ صَقَلْتُ متونَهُ فكأنه ... في مشرِقاتِ النَّظْمِ دُرّ سِخَابِ[1]
وكأنما أجريتُ في صَفَحاتِهِ ... حرّ اللُّجين وخالص الزِّرْيَابِ
أغربْتُ في تحبيره فَرُواته ... في نزهة منه وفي استغرابِ
وقطعت منه شبيبةً لم تشتغل ... عن حسنة بَصباً ولا بتَصابِ
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه ... عَبَق النسيم فذاك ماء شبابي
يُصغي اللّبيبُ له فيقسم لُبَّهُ ... بين التَّعجُّب منه والإعجاب
جِدٌّ يطير شرارُه ، وفُكاهةٌ ... تَستعطف الأحباب للأحباب

قال يحيى بن أكثم لمحمد بن حازم : مافي شعرك شيء غير أنك لا تطيله، فقال:

أبَى لِيَ أن أطيلَ الشِّعر قصدي ... إلى المعنى وعلمي بالصَّوابِ[2]
فأبعثُهنّ أربعةً وخمسًا ... مثقفةً بألفاظ عِذابِ
خوالدَ ما حدَا ليلٌ نهاراً ... وما حَسُن الصَّبا بأخي الشَّباب
وهنّ إذا وَسَمْتُ بهنّ قوما ... كأطواق الحمائم في الرِّقابِ
وهنّ إذا أقَمْتُ مسافراتٌ ... تَهادَاها الرُّواة مع الرِّكابِ

* * *

عَلَى أنّني مِنْ زَمانِي خُصِصْتُ
بكَيْدٍ ولا كيْدَ فِرْعَوْنَ موسى
يُسَعِّر لي كلَّ يومٍ وغًى
أطا منْ لظاها وطِيساً وطِيسا
ويَطْرُقني بالخُطوبِ الَّتِي
يُذِبْنَ القُوَى ويُشِبْنَ الرءوسا

(١) ديوانه ٤٢ والسخاب : القلادة (٢) الأغاني ١٤ : ٩٨، ٩٩

ويدنى إليّ البعيد البغيضَ ويُبعد عنّى القريبَ الأنيسا
ولولا خساسَةُ أخـــلاقِه لما كان حَظّىَ مِنْه خسيساً

فقلت له : خفِّض الأحزانَ ، ولا تَلُمِ الزمان ، واشكُرْ لمن نقلك عن مذهبِ إبليسَ ، إلى مذهَبِ ابن إدريس .

* * *

قوله : على أننى ، أى مع أننى . وقوله : ولا كيد فرعون موسى ، أضاف فرعون إلى موسى ، لأنّ الفراعنة كانوا جماعة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ لكل أمة فرعوناً ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل » .

وفرعون موسى ، كان أكبر الفراعنة كيداً وأطولَهُمْ عمراً ، وأعتاهم على الله ، وأسراهم مملكةَ .

ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام : يارب ، أمهلتَ فرعون أربعمائة سنة ، وهو يقول : أنا ربكم الأعلى ، ويكذّب بآياتك ويجحد رسلك ! فأوحى الله تعالى إنه كان حسنَ الخُلُق سهل الحجاب ، فأحببت أن أكافئه .

وأما عذابه لبنى إسرائيل فقد قدمناه فى الخامسة .

ومما يحكى عنه أنّه كان يأمر بالقَصَبِ فيشقّ ، ويُجعل أمثال الشفار ، ثم يضيف بعضَهَ إلي بعض ، ثم يؤتى بالحبالَى من بنى إسرائيل فيوقَفْن عليه ، فيحزّ أقدامهنّ ، حتى إن المرأة لتضع ولدها فيقع بين رجليها ، فتظَلّ تطؤه تتّقى به حدّ القَصَب عن رجليها .

قال وهب بن منبّه : بَلَغَنِي أنه ذبح فى طلب موسى تسعين ألف ولد .

ولسَب الثعالبيّ المفسر فرعونَ ، فقال : هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الرّيان

ابن أراشه بن ثروان بن عمرو بن قاذم بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

قوله : يُسَعِّر ، أى يهيّج . وغًى : حرب. لظاها : حرّها . وطيساً : شدة ، وحَمِىَ الوطيس : اشتدت الحرب ، وأصله تَنّور من حديد يطبخ فيه ، فشبِّهت شدّة الحرب وحرارتها به . وقيل : هو حفرةٌ يُختَبزَ فيها . والوطيس : الوطء الشديد ، والبلاء الذى يطسّ الناس ،أى يدقهم ويقتلهم .

يطرقنى : يقصدنى ليلا . الخطوب : الأمور الشداد . خساسة : حقارة . حظّى : نصيبى .

ومما قيل فى معنى قوله : ويدنى إلىّ البعيد البغيض . . البيت .. قول الزاهد ابن عمران :

إلمام كلّ ثقيل قد أضرّ بنا ... نروم نقصَهمُ والشىء يزدادُ
ومَنْ يخفّ علينا لا يلمّ بنا ... وللثقيل مع السّاعات تَرْدَادُ

ويقرب منه قول الشاعر :

وكيف يودّ القلب مَنْ لا يودّه ... بلى قد تريدُ النفس مَن لا يريدُها

وقال عدىّ بن الرقاع[1] :

تَبلتْك[2] أخت بنى لؤىّ إذ رمتْ ... وأصاب نَبْلُك إذ رميتَ سِواها
وأعارها الحدَثان منك مودّةً ... وأعار غيرَك وُدّها وهَوَاها

وهذا من قول الأعشى :

عُلّقتُها عرَضاً وعُلّقت رجُلاً ... غيرى ، وعُلّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ[3]

---

(١) اللآلى ١٣٩ .
(٢) ط : « بلتك » ، والصواب ما أثبته من اللآلى
(٣) ديوانه ٥٢ .

وقال مسلم بن الوليد ـ وهو صريع الغوانى ، وكان خاملا فولاّه بنو سهل جرجان فشرُف ـ فقال :

أهلَ الصفاء نأيتمْ بعد قُرْبِكمُ ... فما انتفعتُ بعيش بعدكم صافِى[1]
وقد قَصَدْتُ ندى مَنْ لا يوافقنى ... فكان سهمى عنه الطّائش الطافى
أردتُ «عمراً» وشاء الله «خارجةً» ... أما كفَى الدّهرَ من خُلْفِى وإخلافى!

ولهذا أشار ابن شرف بقوله :

سَلْ عن رضاى عَنِ الزّمان فإنّهُ ... كرضا الفَرَزْدق عن بنى يَرْبُوعِ[2]
فله حالٌ قد تنقّل عهدُها ... كخلاف نَقْل الدهر حال صريعِ
دارت درارىّ الخطوبِ قواصداً ... حتى نظرن إلىّ من تَرْبيعِ

وله أيضاً يتشكّى :

مالى أجاذُب ذى الدنيا مولّيةً ... فكلّ ثوب عليها قُدّمن دبُرِ[3]
أتى الزّمان على يأسٍ به لبَنِى الدُّنيَا ... كبشْرى بمولود على كِبَرِ

وقال أيضاً :

إنى وإن عَزّنى نيلُ المنى لَأَرَى ... حِرْصَ الفتى خَلّةً زيدت على العدمِ[4]
تقلّدتنى الليالى وهى مدبرةٌ ... كأننى صارمٌ فى كفّ منهزمِ

وقال جحظة :

ضاقت علىّ وجوه الرأى فى نفرٍ ... يلقوْن بالجحد والكفران إحسانى
أقلّب الطرف تصعيداً ومنحَدَراً ... فما أقابل إنساناً بإنسانى

وقال أيضاً :

لقد مات إخوتِىَ الصالحونَ ... فمالى صديقٌ ومالى عمادُ

---

(١) ديوانه ٣٢٧
(٢) نقله الميمنى فى التنف ١٠٤
(٣) نقله الميمنى فى التنف ١٠١
(٤) نقله الميمنى فى التنف ١١١

إذا أقبل الصبحَ ولّى السرورُ وإن أقبل الليل ولّى الرقادُ

قوله : خَفّض ، أى سَكّن .

* * *

[ترجمة الإمام الشافعى]

وابن إدريس هو الإمام الشافعىّ محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، يلتقى نسبُه مع بنى هاشم وبنى أميّة فى عبدِ مناف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نحن وبنو المطّلب كهاتين » ـ وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى مضمومتين .

وحاصرت قريش بنى المطلب مع بنى هاشم فى الشِّعْب .

وكان الشافعى أعلَمَ الناس وأورعَهم وأعبدهم ، وأجودهم ، فإن أردت أن تقف على حفظه ومبلغ علمه ، فانظر رحلته .

ووصفه بعضُ أهل العلم فقال : هو شقيق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نَسَبِه وشريكُه فى حَسَبِه .

زوّج المطلب ابنَه هاشماً الشِّفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخيه ، فولدت له عبد يزيد جدّ الشافعى رضى الله عنه ، فكان يقال لعبد يزيد : المحضُ لاقذَى فيه ، فولَد الشافعىّ رضى الله تعالى عنه هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فالشافعىّ ابن عم النبىّ صلى الله عليه وسلم وابن عمّتِه ، لأن الشفاء أخت عبد المطلب ، فهى عمة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأسلم السائب جدُّه يوم بدر ، وكان صاحب راية بنى هاشم بن عبد مناف

أسيرَ وفدَى نفسه ، فأسلم ، فقيل له : لِمَ لَمْ تُسلِم قبلِ أن تَفتَدِى ؟ فقال : ما كنتُ أحرمُ المؤمنين طمعاً لهم فىّ .

قال أبو ثور : مارأيتُ ولا رأى الراءون مثله .

وقال أحمد بن حنبل : ماصلّيت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعىّ . وقال له ابنه : أىّ رجل كان الشافعىّ حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ فقال : يابنىّ كان كالشّمس للدنيا ، أو كالعافية للناس .

وحدّث صالح بن أحمد بن حنبل قال : مشى أبى مع بَغْلَةِ الشافعىّ فى ركابه ، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له : يا أبا عبد الله ، أما رضيتَ إلا أن تمشى مع بغلته ! فقال : يا أبا زكرياء ، لومشيتَ من الجانب الآخر لكان أنفع لك ، ومايمسّ أحدٌ محبرةَ إلا وللشافعى فى عُنُقِه مِنّة .

وقال الشافعىّ رضى الله عنه : ماشبِعْتُ منذ ست عشرة سنة ، لأنّ الشِّبَع يثقّل البدن ، ويقسّى القلب ، ويزيل الفِطْنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة .

وقال : ماحلَفْتُ بالله لاصادقاً ولا كاذباً .

وقال : ماناظرتُ أحداً قطّ فأحببت أن يخطىء ، وما كلّمت أحداً إلا أحببت أن يوفّق ويُسَدّد ويعان ، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ . وما كلّمت أحداً إلا وأنا لا أبالى أن يُبَيِّن الله الحقّ على لسانه أو لسانى ، وما أوردتُ الحجة على أحدٍ ، فقبِل منى إلا هبْته واعتقدت محبّته ، ولا ثابرنى على الحق أحدٌ ودافع الحجة إلا سقط من عينى ورفضته .

وكان يختم القرآن فى رمضان ستّين مرّة كلّ ذلك فى الصلاة .

وقال الكرابيسىّ : بتُّ معه غير ليلة فكان يصلّى نحواً من ثلث الليل ، فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فمائة آية . وكان لايمرّ بآية فيها رحمة إلا

سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين ، ولا بآية عذاب إلا تعوّذ منها وسأل النجاة منها لنفسه ولجميع المسلمين .

وقال عمر بن عبد الله البَلَوىّ: جلسْنا يوماً نتذاكر الزّهاد والعبّاد والعلماء ، وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر ابن نباتة ، وقال : فيم تتحاورون ؟ فأعلمناه ، فقال عمر : والله ما رأيت رجلاً قطّ أوْرعَ ولا أخشَع ولا أصبَح ولا أسمح ، ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل ، ولا أجَلّ ولا أفضل، من محمد بن إدريس الشافعىّ ، خرجت أنا وهُو والحارث بن اللبيد إلى الصّفا ، وكان الحارث صاحب صالح المُرّى، وكان من المتّقين الخاشعين ، وكان حسن الصوت، فقرأ ﴿هذا يَوْمَ لا يَنْطِقُون. ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فيَعْتَذِرون﴾[1] فرأيتُ الشافعى رضى الله عنه قد تغيّر لونه ، واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً ، ثم خرّ مغشيًّا على وجهه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وأعراض الغافلين ! اللهم خضعتْ لك قلوبُ العارفين ، وذَلّت لك قلوب المشتاقين ، اللهم هب لى جُودَك ، وجَلِّلْنى بسِتْرك ، واعف عن تقصيرى بكرم وجهك . ثم قمنا وتفرّقنا .

وقال الربيع بن سليمانَ ، سمعت الشافعىّ رضى الله عنه ، يقول: أتى علىّ عيد وليس عندى نفقة ، فاستسلفت سبعين ديناراً لنفقة أهلى ، فبينا أنا كذلك إذ أتانى رجل من قريش يشتكى إلىّ الحاجة فأخبرته خبرى، وقلت له :خذ ما تحبّ، فقال لى : مايقنعنى إلاّ أكثر من هذه الدنانير ، فقلت له : فخذها ،وبتُّ ومامعى دينار ولا درهم ، فبينا أنا فى منزلى إذ أتانى رسول جعفر بن يحيى البرمكى ، يقول : أجب الوزير ، فأجبته . فقال : ماشأنك فى هذه الليلة ؟ يهتف بى هاتف كلّما دخلت فى النوم، يقول:الشافعىّ الشافعىّ ، فأخبرته بالخبر ، فأعطانى خمسمائة دينار ، ثم قال: أزيدك فأعطانى خمسمائة أخرى ، فلم يَزَلْ يزيدُنى حتى أعطانى ألفى دينار .

(١) سورة المرسلات ٣٥ ، ٣٦

ومن جُوده أن سوطه وقع من يده ، فأعطى مَنْ ناوله إياه خمسين دينار .

وورد مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب خباءه خارجَها ، فأتاه الناس ، فما برح من موضعه حتى فرّقها .

وكان شاعراً مجيدا ، قال أبو القاسم بن الأزرق : دخلت عليه ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أما تنصفنا ! لك هذا الفقه تفوز بفوائده ، ولنا هذا الشعر ، وقد جئتَ تُداخلنا فيه ! فإمّا أفردتَنا أو أشركتنا فى الفقه ، وقد أتيتُ بأبيات إن أجزتَها بمثلها تبت من الشّعر ، وإن عجزتَ تُبْ منه ، فقال لى : إيه يا هذا ، فأنشدته هذا الكلام :

ما همّتى إلا مقارعةُ العِـــدَا ... خَلُق الزمان وهمّتى لم تخلُقِ
والنّاس أعينهم إلى سبب الغِنى ... لا ينظرون إلى الحجا والأولَقِ
لـكنّ مَنْ رُزِق الحجا حُرِم الغنى ... ضـدّان مفـترقان أىّ تفرق
لو كان بالحيـل الغنى لوجدْتُنِى ... بنجوم أقطـار السماء تعلّقِى

فقال الشافعىّ رضى الله تعالى عنه : ألا قلت كما أقول ارتجالا :

إن الذى رزق اليسار فلم يَنَلْ ... حمـداً ولا أجراً لغـيرُ موفّقِ[1]
فالجـدّ يدنى كلّ أمر شاسعٍ ... والجدّ يَفْتَح كلّ باب مُغْلَق
فإن سمعت بأنّ مجدوداً حوى ... عُوداً فأثمر فى يديه فحقّقِ
وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى ... ماء ليشرَبه فغـاض فصدّق
وأحقّ خلق الله بالهمّ امرؤ ... ذو همّـةٍ يُبْـلَى بعيشٍ ضيّقِ
ومن الدليل على القضاء وكونِه ... بُؤْس اللبيب وطيبُ عيش الأحمقِ

فقلت له : لا قلتُ شعرا بعدها .

---

(١) ديوانه - ، ونقل جامعه عن محمد بن منصور ، قال : قرأت فى كتاب طاهر بن محمد النيسابورى بخط الإمام الشافعى ، وذكر الأبيات .

قال المبرِّد : كان الشافعيّ رضى الله عنه أشعرَ الناس وآدب الناس ، وأعرفهم بالفقه والقراءات ، ولقد أخبرنى بعضُ أصحابى أنه مات ولدٌ لعبد الرحمن ابن مهدىّ ، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه : يا أخى، عزِّ نفسك بما تُعزِّى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك . واعلم أن أمضّ المصائب فقدُ سرور ، وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتسابِ وزرْ ! فتناول حظّك يا أخى إذا قرب منك قبل أن تطلُبَه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبرًا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً ، وكتب إليه :

إنى أعزّيك لا أنّى على ثقة ... من الحياة ولكنْ سُنّة الدِّينِ (١)
فما المعزّى ببـاقٍ بعـد ميِّتِه ... ولا المعزِّى وإن عاشا إلى حين

وقال أيضاً :

علمى معِى حيثما يَمّمْتُ ينفعنى ... قلبى وعاء له لا بطنُ صُنْدُوقِ (٢)
إن كنتُ فى البيت كان العلمُ فيه معى ... أو كنتُ فى السّوقِ كانَ العلمُ فى السّوق

وقال أيضاً :

ومنزلةُ السَّفيهِ من الفقيهِ ... كمنزلة الفقيه من السَّفِيهِ (٣)
فهذا زاهدٌ فى قُرْب هـذا ... وهـذا فيه أزهدُ منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيهٍ ... تقطّع فى مخالفـة الْفَقِيه

وناظرَ الشافعيّ محمد بن الحسن الكوفىّ بالرَّقة فقطعه الشافعيّ ، فبلغ ذلك هارون الرشيد ، فقال : أما علم محمد بن الحسن إذا ناظر رجلاً من قريش ، أنه يقطعه ؛ سائلا أو مجيبا ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « قدِّموا قريشا ولا تقدَّموا عليها ، وتعلَّموا منها ولا تعلِّموها » ، فإن علم العالم منها يَسَعُ طباق

(١) ديوانه ٦٨ (٢) ديوانه ٤٩ . (٣) ديوانه ٧١

الأرض . وكان الشافعيّ يعظّم محمد بن الحسن لعلمه ، واستعار شيئاً من كتبه فلم يسمعه بذلك ، فكتب إليه الشافعيّ رضى الله تعالى عنه :

قُلْ للّذى لم تَرَ عيـ نامَنْ رآه مثلَهُ[1]
ومن كأنّ من رآ ه قد رأى من قبلَهُ
العلم ينهى أهلَه أن يمنعوه أهلَهُ
لعلّه يبذُله لأهله لعلّه

فبعث إليه بما سأل .

وقال فى الفقيه ابن عبد الحكم وقد اعتلّ فعاده :

مَرِضَ الحبيبُ فعُدْته فمرضت من حَذَرِى عَلَيْهِ
شُفِىَ الحبيبُ فعادنى فشفيت من نظرى إليه

وقال أبو سعيد : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول بيتين وهما :

إنى أرى نفسى تتوق إلى مصرٍ ومِن دُونها عَرْضُ المهامه والقَفْرِ
فوالله ما أدرى أللخفض والغنى أقاد إليها ، أم أقاد إلى القبر !

قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى سيق إليهما جميعا .

ورأيته بعد وفاته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أجلسنى على كرسىّ من ذهب ونثر علىّ اللؤلؤ الرّطب .

وقال المُزَنىّ : دخلت عليه غداة وفاته فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، ولإخوانى مفارقاً ، ولكأس المنية شاربا ، ولا أدرى إلى الجنة تصير نفسى فأهنّيها أم إلى النار فأعزّيها ! ثم أنشا يقول :

(١) ديوانه ٥٤ .

ولمّـا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي جعلت الرّجا منّي لعفوك سُلّما[1]
تعـاظَمني ذنبي فلمّـا قرنتـه بعَفْوك ربّي كان عفوُك أعظما

وكانت وفاته فى رجب ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين ، ودفن فى صبيحتها وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلّى عليه السّرى بن الحكم أمير مصر ، ودفن بها نحو قبور الشهداء فى مقبرة بنى عبد الحكم وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وفيه مكتوب : « هذا قبر محمد بن إدريس الشافعيّ أمين الله » .

وقال الشافعيّ : أظلم الظالمين لنفسه مَنْ تواضع لمن لا يكرمُه، ورغِب فى مودة من لا ينفعه ، وقَبِل مدح مَن لا يعرفه .

وقال : مَنْ غلبت عليه شدة الشهوة بحبّ الدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضىَ بالقَنَع زال عنه الخضوع .

وقال الربيع بن سليمانُ : سمعت الشافعيّ يقول :

وأنزلنى طُولُ النوى دارَ غُرْبةٍ يجاورنى مَنْ ليس مثلى يشاكِلُه[2]
أخامقـةٍ حتى يقـال سجيّةٌ ولو كان ذَا عقْلٍ لكنت أعاقله

قال : وسمعته ينشد :

صُنِ النفس واحملها على ما يَزينُها تَعِشْ سالما والقولُ فيك جميلُ[3]
ولا تولينّ النـاس إلا تجمّلاً نَبَا بك دهرٌ أو جفاكَ خليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبرْ إلى غدٍ عسى نكباتُ الدهر عنك تزولُ
ولا خيرَ فى ودّ امرئٍ متلوّنٍ إذا الريحُ مالتْ مال حيث تَميلُ
وما أكثر الإخوانِ حين تعدُّهم ولكنّهم فى النائبات قليلُ !

(١) ديوانه ٥٩ . (٢) ديوانه ٥٣ . (٣) ديوانه ٥٣ .

قال : وسمع رجلاً يَسُبُّهُ على رجل من أهل العلم ، فقال لأصحابه : نزّهوا أسماعكم عن استماع الخَنَى ، كما تنزّهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإنّ السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه ، فيحرص على أن يفرغه في أوعيتكم .

نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :

فسمعَك صُنْ عن سَماع الخَنَى ... كصونِ اللّسان عن النُّطق به
فإنك عند استماع الخَنَى ... شريكٌ لقائله فانتبهْ

وكان الحسن البصريّ رحمه الله ، إذا خطب الحجاج ، وذكر السَّلَف ، يتكلّم تشاغلاً عن خطبته ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن السامع والمتكلم شريكان ، ألم تسمع قول الشاعر :

فجاء به ناطق منهمُ ... بليغٌ ومستمعٌ صامتُ
فكلٌّ له حظّه أنه ... أعان مَعَ الناطق الساكتُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

إن كنتَ لا ترهب ذمّي لما ... تعلم من صَفْحي عن الجاهل
فاخش سكوتي إذ أنا منصتٌ ... فيك لمسموعي خنى القائل
فالسامع القول كمن قاله ... والموكل المأكول كالآكل

وذكر الفنجديهيّ الشافعيّ ، فقال: هو إمام الأنام ، ونظام الإسلام، أحد الأئمة الأربعة الأطواد ، الشامخة في الدين الأجواد ، رضيع لبان النبوّة ، أفضل العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور وبدر الصدور ، وهادي الدّعاة، وداعي الهداة ، إكسير العلوم ، وإكليل الرسوم . عِلْم العلماء شظيّةٌ من عِلْمه ، وحلم الحلماء جَذْوَةٌ من حلمه ، وعقائد الأصول مقتدَحة من زناد كلماته ، وقواعد

الفروع مقترحة من عداد نعمانه ، فارس هَيْجاء المشكلات ، ومقوّم عَوْجاء المعضلات ، منبع السُّنن ، ومتّبع السَّنن ، فاز بغلبات الأقران ، وحاز قَصَبَاتِ الرّهان ، بطهارة الأعراق ، ودماثة الأخلاق ، وفخامة شرف الأمومة ، وكرامة طرفى الأبوّة والعمومة ، درّة الأصداف ، من صميم آل عبدمناف ، كشف الظّلمة عن الأمة ، وصرف عنهم المظلمة المدلهمّة ، بعلمٍ كالبحر اللجّىّ ، ورأى كالبدر فى الليل الدجىّ ، مذهبه مؤيّد بنصوص القرآن ، وفصول الفرقان ، أسّس بُنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، فهو بين المذاهب والأديان ، كالناظر فى الأجفان والسمع فى الآذان ، والعقل فى الإنسان ، والعدل للسلطان ، أحلّه الله محلّ القُدْس ، وأدلى إليه سحاب الأنس .... فى كلام أكثر من هذا .

* * *

فقال : دَعِ الهِتَار ، ولا تهتِك الأستار ، وانهضْ بنا لِنَضْرِبَ إلى مسجد يَثْرِب ، فعسى أن نَرْحَضَ بالمزارِ ، درَن الأوْزار . فقلت : هيهات أن أَسِيرَ ، أو أفقَـــهَ التفسير ، فقال : تاللهِ لقدْ أوجَبْتَ ذِمَمًا ، وطلبت إذ طلبت أَمَمًا . فهاكَ ما يشفى النَّفس ، ويَنْفى اللَّبس ، قال : فلمّـا أوضح لى المعمّى ، وكَشَفَ عَنّى الغُمَّى ، شدَدْنا الأكْوَار ، وسِرْت وسار . ولم أزل مِنْ مسامَرَته ، مدّة مسايَرَتِهِ ، فيما أنسانى طعْمَ المشقّة ، ووددْتُ معـــه بُعْدَ الشُّقة ، حتّى إذا دَخَلْنَا مَدِينة الرّسول ، وفزنا من الزّيارةِ بالسُّول ، أشأم وأعْرَقتُ ، وغرّب وشَرْقتُ .

. . .

قوله : دع الهِتار : ، أى أترك تمزيق العِرْض ، وفلان يهاتر فلانا ، أى يسابّه بالباطِل من القول ، والقبيح من اللفظ ، وأصل الهَتْر سقَط الكلام والباطل ، والمهاترة : القول الذى ينقض بعضه بعضاً ، وأُهتِر الرجل فهو مهتَر ، إذا أولِع بالقول فى الشىء ، واستُهتر ، فهو مستهتَر : ذهب عقله فيه ، وانصرفت إليه همته . تهتِك : تخرق وتكشف ، يريد أنه لما عرض له بنقائصه قال له : دع كشف العيب ، فليس هذا موضعه . انهض : تقدم . لنضرب : لنمشى فى الأرض . نَرْحض : نغسل . المزار : زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم . درَن الأوزار : وسخ الذنوب . هيهات : معناه بَعُدَ ذلك عنك . أفقه : أفهم ، وذِمَما : جمع ذمّة ، وهى العهد . أمَمًا : شيئاً قريبا ، والأمَم : القصد . هاك : أى خذ . المعمّى : المغطَّى المشكِل المعنى ، وأراد به شرح المائة الفتيا الملغِزة . ويقال لمن يطلب ما يمكن ولم يشتطّ : طلب أمَمًا قال عبيدالله بن قيس الرقيّات :

كوفيّةٌ نازح محلّتها لا أمَمٌ دارها ولا صَقَبُ[1]

الصَّقَب : القرب . الغُمّى : هى الغمة التى تغطّى على الذهن ، والمعمّى الأمر الملتبس . الأكوار : ما هو للإبل كالبراذع للدواب . الشُّقة : السفر البعيد . والسُّول : المراد ، أشأم وأعرقت : قصدَ الشأم وقصدتُ العراق .

[فصل فى زيارة قبر الرسول عليه السلام]

ونذكر هنا فصلاً فى زيارة القبر المعظّم وتوديع زائره له ووصف الروضة والمسجد وذِكْر يثرب ، وهى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ومهاجَره ، سمّاها طيبة لما كان اشتقاقها من التّثريب[2] . وكان صلى الله عليه وسلم يغيّر الأسماء التى تدلّ على الاستقباح إلى ضدّها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ زار قبرى وجبت له شفاعتى » .

(١) ديوانه ٨ ، وفيه « ولا سقب » ، وهما سواء (٢) التثريب : الإفساد

ابن عمر رضى الله عنهما : يثرب أرض مدينة الرسول فى ناحية منها .

وقال شيخنا ابن جبير فى روضته صلى الله عليه وسلم : شاهدنا [1] الرّوضة المكرّمة ، وقد وقع الأذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعيّة الأصبهانىّ الذى ورث النّباهة والوجاهة فى العلم كابراً عن كابر ، المعروف برئيس العلماء ، توارثة عن أبٍ فأبٍ ، وقد غصّ الحرَم بالمنتظرين ، وقد أعِدّ له كرسىّ بإزاء الرّوضة المقدسة ، فصعد وحضر قرّاؤه أمامه ، فابتدءوا بالقراءة بنغمات عجيبة ، وتلاحين مطربة بهيجة ، وهو يلحظ الرّوضة المقدّسة ، ويُعلن بالبكاء . ثم أخذ فى خطبةٍ من إنشائه سحريّة البيان ، وسلك فى أساليب من الوعظ باللّسان ، وأنشد أبياتاً بديعة من قوله ، كان يردّد منها هذا البيت ، ويشير إلى الروضة المعظّمة المطهّرة .

هانيك روضتُه تفوح نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تَسْلِيماَ

وتمادَى فى وعظه إلى أن أطار النفوس من خشيةٍ ورقّةٍ ، هو يعتذر من التقصير ، لهول ذلك المقام ويقول : عجبا لألكَنِ العجم ، كيف ينطق عند أفصح العرب . وتهافتت الأعاجم عليه معلنين بالتوبة ، وقد طاشت ألبابُهم ، ودِهشت عقولهم ، فيلقُون نواصِيَهم بين يديه ، فستدعى الجلّسين ، ويجرّهم ناصية ناصية ، وكلّما جزّ ناصية كساها عمامة ، فتوضع عليه للحين عمامة أخرى ، ثم ختم مجلسه ، بأن قال : معشر الحاضرين ، قد تكلّمت لكم ليلة بحرَم الله ، وهذه الليلة بحرم رسوله ؛ ولابد للواعظ من كُدْيَة ، وأنا أسألكم حاجة وإن ضمنتوها إلىّ أرقتُ لكم ماء وجهى فى ذكرها . فأعلن الناس بالإسعاف وشهيقهم قد علا ، فقال : حاجتى أن تكشِفُوا رءوسكم ، وتبسطوا أيديَكم ، ضارعين لهذا النبى الكريم فى أن يرضى عنّى ويسترضى الله عزّ وجل لى . ثم أخذ فى تعداد ذنوبه ، والاعتراف بها ، فأطار الناس عمائمهم ، وبسطوا أيديَهم للنبى صلى الله

(١) رحلة ابن جبير ص ١٦٨ وما بعدها مع تصرف .

عليه وسلم ، داعين له باكين متضرّعين ؛ فما رأيت ليلة أكثر دموعاً، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة . ثم انفضّ المجلس .

قال ابن جبير رحمه الله : ثم كان فى اليوم التالى لهذه الليلة وداعُنا للروضة المكرّمة ، فياله وداعاً ، ذهلت له النفوس ارتياعاً ، حتى طارت شعاعاً ، وماظنّك بموقف ينادَى بالتوديع فيه سيّدُ المرسلين، وخاتم النبيين، ورسولُ رب العالمين ! إنه لموقفٌ تنفطر فيه الأفئدة ، وتطيش له الألباب المتّئدة ، فوا أسفاه واأسفاه ! كلٌّ يبوح لديه بأشواقه ، ولا يجدُ بُدًّا من فراقه ، فما تستطيع إلى الصبر سبيلا ، ولا تسمع فى ذلك المقام إلاّ رنّةً وعويلا ، وكلٌّ بلسان الحال ينشد :

محبّتى تقتضى مَقامِى وحالتى تقتضى الرّحيلا

بوّأنا الله بزيارة هذا النبىّ الكريم منزلَ الكرامة ، وجعله شفيعاً لنا يوم القيامة ، وأدخلنا بفضله فى جواره الكريم دار المقامة .

ثم ذكر الرّوضة المقدّسة مع المسجد العتيق الذى احتَوى على الروضة ، فقال: المسجد المبارك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُستطيلٌ ، وتحفُّه من جهاته الأربع بلاطات مستطيلة ، ووسطه كلّه صحن مفروش بالحَصى والرّمل ، وفى الصحن خمس عشرة نخلة ، فالجهة القبلية لها خمس بلاطات مستطيلة من غَرْب إلى شرق ، والجنوبيّة كذلك ، على الصفة المذكورة والشرقيّة لها ثلاث بلاطات ، والغربيّة لها أربع بلاطات . وطول المسجد مائة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعددُ سَواريه مائتان وتسعون ، وهى أعمدة متصلة بالسّمك دون قامة تنعطف عليها ، فكأنّها دعائم قوائم ، وهى من حَجَر منحوت قطعا قطعا ، مُلَمْلَمة[1] مثقوبة توضع أنثى فى ذكر ، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن يتصل عموداً قائماً ، وتُكسى بغِلالة جير ، ويبالَغ فى صَقْلها ودَلْكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض ، وتحفّ بالبلاط المتّصل بالقبلة من

(١) الململم : الحجر المجتمع الأملس

البلاطات الخمس مقصورة تكتنفه من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، وعلى رأس المحراب حجر مربّع أصفر قدرَ شبر فى شبر ، ظاهر البريق ، يقال : إنه كان مرآة كسرى . وفى أعلى داخل المحراب مسمار مثبّت فى جداره ، فيه شِبْه حقّ صغير لايعرف من أىّ شىء هو ، ويزعمون أنه كان كأس كسرى . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع أزاراً على إزار مختلف الصّنعة واللون ، بمجزّع أبدع تجزيع . والنصف الأعلى من الجدار مزيّن كلّه بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيفِساء ، قد نتج الصانع فيه نتائج غريبة من الصّنعة ، تضمّنت تصاوير أشجار مُختلفة الصفات ، مائلة الأغصان بثمرها ، والجداران الشرقى والغربى النّاظران إلى الصحن مُجَرّدان أبيضان مُقرفَصان ، قد زُيِّنَا برسم يتضمّن أنواعاً من الأصبغة إلى مايطول وصفه من الاحتفال فى هذا المسجد المبارك .

وفى الجهة الشرقية بيتٌ مصنوع من عُود لمبيت بعض سَدَنَتِه ، وسدنَتُه غِيانٌ أحابيش صقالبُ ظراف الهيئات ، نظاف الملابس ، والمؤذّن الرّاتب فيه أحد أولاد بلال ، وفى جوف الصَّحْن قبّة كبيرة تُعرَف بقبّة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد .

وله تسعة عشر باباً لم يبقَ منها مفتوحاً سوى أربعة : اثنان فى الغرب ، ويُعرَفان بباب الرحمة ، وباب الخشية ، واثنان فى الشرق: باب جبريل ، ويقابله دار عثمان الّتى استُشهد بها ، وباب الرّجاء . وفى الشرق خمسة مغلقة ، وفى الغرب كذلك ، وفى الجنوب أربعة وفى القبلة واحدٌ صغير ، وله ثلاث صوامع إحداها فى الركن الشرقىّ على هيئة الصوامع ، واثنتان فى ركنى الجهة الجنوبية صغيرتان على هيئة بُرْجين ، والرَّوضة المقدّسة مع آخر الجهتين ، الجهة القبلية ممّا يلى الشرق ، وقد انتظمت من بلاطاته ممّا يلى الصّحن فى السعة اثنين ونيّفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلُها شكلٌ

عجيبٌ لا يكاد يتأتّى تصويرُه ولا تمثيله ، والصّفحات الأربع محرّفة عن القبلة تحريفاً بديعاً ، لا يتأتّى لأحد معه استقبالها فى صلاته ، لأنه ينحرف عن القبلة ، والذى اخترع ذلك فى تدبيرها مخافة أن يتّخذها الناس مصلّى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأخذت من الجهة الشرقية سعة بلاطتَين ، وانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وأربعون شبراً ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ، ومن الركن الشرقىّ إلى الركن الجنوبىّ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الجنوبىّ إلى الغربى صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الغربىّ إلى القبلىّ صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً ، وفى هذه الصفحة صُندوق آبنوس مختّم بالصندل ، مصفّح بالفضة ، مكوكب بها طوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة ، وهو قُبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، فجميع سعة الروضة من جميع جهاتها مائة شبر ، واثنان وسبعون شبراً ، وهى مؤزّرةٌ بالرخام البديع النحت الرائع النعت ، وينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر ، قد علاه تضميخ المسك والطّيب مقدار نصف شبر مسوّدًا مترا كباً ، مقشققا مع طول الأزمنة والأيام ، والذى يعلُوه من الجدار شبابيك عُود متّصلة بالشّمْسَة الأعلى ، لأنّ أعلى الروضة متصل بسُمْك المسجد ، والى حيّز إزار الرخام تنتهى الأستار ، وهى لازوردّية اللون ، مختّمة بخواتم بيض مثمّنة ومربعة ، وفى داخل الخواتيم دوائرُ مستديرة ، ونُقَط بيض تحفّ بها ، فمنظرها منظر بديع الشّكل . وفى أعلاها رسم مائل إلى البياض ، وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم مسمار فضّة ، هو قبالة الوجه المكرّم ، فيقف الناسُ أمامه للسّلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبى بكر رضى الله عنه ، ومما يلى كتفى أبى بكر رأس عمر رضى الله عنهما ، فيقف المسلِّم مستدبر القبلة ، ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلِّم ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبى بكر ، ثم إلى وجه عمر رضى الله تعالى عنهما .

وأمام هذه الصفحة المكرّمَة نحو العشرين قِنديلاً معلّقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب ، وفى جوفَى الروضة حوضٌ صغير مرخّم فى قبلته شكلُ محراب ، قيل : إنه بيت فاطمة رضى الله تعالى عنها ، ويقال : هو قبرها ، وعن يمين الرّوضة المكرّمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو فى الحوض المبارك الّذى طوله أربع عشرة خطوة ، وعرضه ستّ خطا ، وهو مرخّم كلّه وارتفاعه شبر ونصف ، وارتفاع المنبر نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وبابه على هيئة الشّبّاك مقفل يُفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر .

والمنبر مغشّى بعود الآبنوس ، ومقعد النبى صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهرٌ ، وقد طبق عليه لوح من الآبنوس غيرُ متّصل به ، يصونه من القعود عليه ، يدخل الناس أيديَهم إليه ، ويمسحونه تبركا بلمْسِ ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجْل المنبر اليمنى ، حيث يضع الخطيب يده حلقة فضة مجوّفة مستطيلة تشبه حَلْقة الخياط ، لكنها أكبر لاعبة تستدير فى موضعها ، يزعمون أنها كانت لُعبة للحسن والحسين فى حال خطبة جدِّهما ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وفى الرّوضة الصغيرة التى بين القبر والمنْبر ، جاء الأثر أنها روْضة من رياض الجنة ، وقدرُها ثمان خُطا ، ويتزاحَمُ النّاس فى هذه الرّوضة للصلاة ، وبإزائها لجهة القبلة عمود ، يقال إنه مُطْبق على بقية الجِذْع الّذى حَنّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة ، يقبّلها الناس ، ويمسحون خُدُودهم فيها وعلى حافتها فى القبلة منها صندوق كبير للشّمْع والأنوار التى توقد أمام الرّوضة كلّ ليلة ، ومصلّى الإمام فى الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق ، وبينها وبين الروضة الكبيرة محمَل كبيرٌ مدهون عليه مُصْحَفٌ كبيرٌ فى غِشَاء مقفل ، هو أحدُ المصاحف الأربعة التى وجّه بها عثمان إلى البلاد ،

وبإزاء المقصورة لجهة المشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد ، ويليها فى البلاط الثانى دفةٌ لجهة الشرق ، وَدَفّة مطبقة على وجه الأرض إلى سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض ، يُفْضِى إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر ، وهو كان طريق عائشة رضى الله عنهما إليها . وذلك الموضع هو موضع الخوخة المُفْضية لدار أبى بكر رضى الله عنه التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإبقائها ، وبإزاء دار أبى بكر دار عمر وابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين .

وفيما ذكرناه كفاية ، والله تعالى أعلم .

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتفليسية

حكى الحارث بن همّامٍ ، قال : عاهدْتُ اللهَ مُذْ يَفَعْتُ ، ألاّ أؤخِّر الصّلاة ما اسْتَطَعْت ؛ فكنتُ مَعَ جَوْبِ الفَلَوَاتِ ، ولَهْوِ الخَلَواتِ ، أُراعِي أَوْقاتَ الصَّلاَة ، وأُحاذر مِنْ مأْثم الْفَوَاتِ . وإذا رافقْتُ فى رِحْلَة ، أو حَلَلْتُ بِحِلّةٍ ، مَرْحَبْتُ بِصَوْتِ الدَّاعِي إِلَيْهَا ، واقْتَدَيْتُ بِمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا .

فاتّفَق حين دخلتُ تَفْلِيس ، أن صَلّيْتُ مَعَ زُمْرَةٍ مَفالِيس فلمَّا قضَيْنَا الصَّلاَة ، وأزْمَعْنَا الانفِلاَت ، بَرَز شيخٌ بادِى اللَّقْوَةِ ، بالِي الكُسْوةِ والقُوّة ، فقال : عَزَمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طينة الحُرِّية ، وتفوَّق دَرَّ الْمَصيبَة ، إلاَّ ما تكلّفَ لِي لُبْثَةً ، واسْتَمعَ منّى نَفْثَةً ، ثم له الخيارُ مِنْ بَعْد ، وبيدِه الْبَذْل والرّدّ . فَعَقَدَ لَهُ الْقَوْمُ الحَبَا ، وَرَسَوْا أَمْثَالَ الرُّبا .

يفعت : شببت ولم أبلُغ الحُلم ، وقاربت ذلك .

ابن أبى الخير : يفَع الغلام وأيفَع ، إذا كان ابنَ سبع سنين ، فإذا ناهز الحُلُم قيل : مُراهق وكوكب[1] ، فإذا أدرك قيل : فيه حَزَوَّر .

غيره : غلامَ يَفعة غضُّ الشباب ، وجاريةٌ يَفعة ، والجمع أيفاع وأيفُع ، فهو يافع على غير قياس . قال ابنُ سيده رحمه الله : ولم يقل أحدٌ منهم يَفَع الغلام ، ولا مُوفع ، ومثله أبقَل الموضع ، وأوْرَس ، والوَرْس : نَبْتٌ أصفر . جوب :

(١) فى القاموس : الكوكب : الغلام المراهق .

قطع . الخلوات : حيث يخلو للذاته . أراعي . أحفظ . مأثم : إثم . الفوات . فوت الوقت . رافقت فى رحلة : صاحبت فى ارتحال وسفر . حَلَلْتُ : نزلت ببلدة . والحِلَّة : جماعة البيوت ، والحِلّة : القوم الحُلول والجمع حِلال. مَرْحبت: قلت مَرْحَبًا . الدّاعى : هو المؤذّن .

[ما قيل فى أداء الصلاة فى وقتها وما جاء فى تركها]

وجاء من الأثر فى تأخير الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الرجل ليصلّى الصلاة وما فاتَهُ وقتها ، ولَما فاته من وقتها أعظمُ أو أفضلُ من أهله وماله » . فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوات أوله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الوقت الأوّل من الصلاة رضوان الله ، والثانى عفو الله » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : رِضْوان الله أحبُّ إلىّ من عفوه . وإنّما قال ذلك لأن عفو الله لا يُتصوّر إلا عند اكتساب خطيئة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة من النار ، ومن لم يحافظ عليها كان يومَ القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خلف » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الذى تفوته صلاة العصر ؛ فكأنما وُتِرَ أهله وماله » .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى عمّاله : إن أهمّ أموركم عندى الصّلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينَه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيَع .

وجاء فى القرآن: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بعدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾[1] ، وفى التّفسير : لم يتركوا الصّلاةَ وإنما أضاعوا وقتها .

وقال صلى الله عليه وسلم: « لا تفريط فى النوم ، وإنما التفريط فى الّذى يؤخّر الصلاة إلى وقت الأخرى »

(١) سورة مريم ٥٩

وسُئِل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الّذين هم عن صلاتهم ساهون ، فقال: « هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها » .

وممّا يُستظرف من هذا الباب أنّ المنصور قيل له : إن أبا دُلامة لا يحضر الصلاة ، لأنه معتكفٌ على الخمر ، وقد أفْسَد فتيان العسكر ، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأصلحتَه وغيره . فلمّا دخل عليه قال : أبو دلامة الماجن ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والمجون ، وقد ساورْت بابَ قبرى ، فقال: عنى من استكانتك وتضرّعك وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعَصر فى مسجدى ، فإن فاتَتْك لأحْسِنَنّ أدبَك ، ولأطيلنّ حبسَك . فوقع فى شرّ أمر ، فلزم المسجد أياماً ثم كتب رقعةً ودفعها إلى المهدىّ ، فأوصلها إلى أبيه وفيها :

ألم تعلَما أنّ الخليفةَ لزّنى ... لمسجدِه والقَصْرِ مالى وللْقَصْرِ (١)
أصلّى به الأولى جميعاً وعصرَها ... فويلى من الأولى، وَوَيْلى من العَصرِ !
أصلّيهما بالكُرْه فى غير مسجدِى ... فمالىَ فى الأولى وفى العصر من أجْرِ
يكلّفنى مِنْ بعد ما شبتُ توبةً ... يحطُّ بها عنّى الثّقيلَ من الوِزْرِ
ووالله مالى نيّـــةٌ فى صلاتها ... ولا البرّ والإحسان والخيرُ من أمرى
لقد كانَ فى قومِى مساجدُ جَمّةٌ ... ولم ينشرح يوماً لغِشيانها صَدْرِى
وما ضرّه ـ والله يغفر ذنبه ـ ... لو أن ذنوبَ العالمين على ظهرى!

فقال : صدقَ دَعوهُ يُضلّ مَنْ يشاء ، وما يضرّنى ذلك ! والله لا يفلح هذا أبداً ، فدعوه يفعل ما يشاء .

وكان الجمّاز منقطعاً إلى أبى جَزْء الباهلىّ ، فتناسك أبو جَزْء ، فقال الجمّاز : لا أحِبّ أن تخالطنى إلا أن تتنسّك فأظهر النُّسك ، ثم كتب إليه :

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٠ : ٢٤٨ .

قـد جفانى الأمير كى أتقرّى ... فتقرّيتُ مكرهاً بجفائِهِ[1]
والّذى أنطوى عليه المعاصى ... عــلم الله نيّتى من سمائِهِ
ما قِراة لمكرَهٍ بقراةٍ ... قد رواه الأمير عن فقهائِهِ

ومن مجون أبى نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحَبَسه ، فكلّمه فيه الفضل بن الربيع ، وأخرجه كتب إليه :

أنتَ يابن الربيع علّمتنِى الخيْـــرَ وعَوّدْتَنِيه والخيرُ عادَهْ[2]
فارعوى باطلِى وراجعَنِى الحـــلمُ فأحدثتُ رهبةً وزَهَادَهْ
لو ترانى ذكرت بى الحسن البص ... رىّ فى حال نسكه أو قَتَادَهْ
المسابيح فى دراعى والمُصْـــحف فى لَبّتِى مكانَ القِلاَده
فإذا شئت أن ترى طرفة تَعْـ ... ـجب منهـا ملوحةً مستفَادَهْ
فادْعُ بى لا عدمتَ تقويمَ مثلى ... فتأمّلْ بعينـــك السّجّادهْ
لورآها بعضُ المرائين يـــوماً ... لا شتراها يعدّهـا للشهـادهْ
أثرٌ لاحَ للصّلاة بوجْهى ... تُوقن النّفْس أنه من عِبَادَهْ

وأذِن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه ، فأكل ولم يدعُهم لطعامه ، ثم دعا بطشتَ وكَشَف عن سوءته فبال ، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى والآخرة ، فلم يُصَلِّ فقالوا له : أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها عليك . قال : وما هىَ ؟ قالوا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تُدعُنَا إليه ، قال : إنما أذنت لكم لتأكلوا ، ثم ماذا ؟ قالوا : دَعَوْت بالطشت ونحن حضورٌ فبُلْت ونحن نراك ؛ فقال : أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بغَضّ البصر دُونى ، ثم ماذا ؟ قالوا : حَضَرتِ الصلاةُ فلم تصلّ ، فقال : إنّ الذى يقبلُها تفاريق يقبلها جملة . هذا على أنه القائل :

(١) الأمالى ٣ : ٤٦ . تقرى : تنسك .
(٢) ديوانه ١٤٥ ، ذيل زهر الآداب ١٦٨ .

ألم تر أنّ الدهر يقدح فى الصَّفا وأنّ بقائى إنْ حييتُ قليلُ[١]
خَليلُك ما قدّمت من عَمل التُّقى وليس لأيّام المنــون خليلُ
فعش خائفاً للموت أو غير خائفٍ[٢]
على كلّ نفس للحِمَام دليلُ

وقال الحسن رحمه الله تعالى[٣] :

وندمانٍ يرى غبناً[٤] عليــه بأن يمسى[٥] وليس له انتشاء
إذا نبّهتَه من نــوم سُكْرٍ كفاه مَرّةً منك النداءُ
إذا ما أدركتْه الظهر صلّى[٦] فلا ظهرٌ عليــه ولا عشــاءُ[٧]
يُصلّى هذه فى وقت هــذى فكلّ صلاته أبداً قضاءُ

[ذكر مدينة تفليس]

تفليس : مدينة بأرمينيَة بينها وبين قَالِيقَلاَ ثلاثون فرسخا، ومن قالى قلا ابتداء الأنهار العظام، أوّلها الفرات ـ وقد تقدّم ـ يأخذ من قالى قلا فرسخين، ثم يشقّ مغرّبا إلى دَبيل إلى وَرْثان ، ثم يصبّ إلى بحر الخزَر ،والثانى الكبير يخرج من مدينة قالِى قَلاَ ، ثم يشقّ إلى مدينة تَفْلِيس مشرّقا إلىمدينة بَرْدعة وأرضها ، ثم يقرب من بحر الخزَر ، فيلتقىّ مع الرسّ ويصيران نهراً واحداً .

ويقال : إن خَلْف الرسّ ثلثمائة مدينة خراب، وهى التى ذكرها الله تعالى ، وأصحاب الرسّ بُعث إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه ، فأهلكوا . وقيل فى أصحاب الرسّ غير ذلك .

(١) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٤٦ (٢) المختارات : « عائف »
(٣) مختار الأغانى ٣ : ٦٦
(٤) ط : « عيبا » ، تصحيف . (٥) المختار : « يلقى » .
(٦) ط : « حيا » ، وماأثبته من المختار .
(٧) المختار : « ولا عصر عليه ولا عشاء » .

وإرمينيَة مقسومة على ثلاثة أقسام ، فالقسم الأوّل مدينة دَبِيل ، ومدينة قالى‌قلا ، ومدينة خِلاَط ، ومدينة شِمْشَاط ، ومدينة السوّاد ، والجزء الثانى مدينة بَرْدعة ، ومدينة البَيْلُقان ، ومدينة قيلة ، ومدينة الباب والأبواب والثالث مدينة خَزْوان ومدينة تفليس . والمدينة التى تعرف بمسجد ذى القرنين ، وافتتحت إرمينيَة فى خلافة عثمان ، وافتتحها سليمان بن ربيعة الباهلىّ فى سنة أربع وعشرين .

عُصْبة : جماعة . مفاليس : فقراء ، وأفلسَ الرجل : صار صاحبُ فلوس بعد أن كان صاحب دنانير . أزمعنا الانفلات : عزمنا على الخروج . اللقوة : داء يأخذ فى الوجه ، و الفُوَاق : ما بين الحلبتين . درّ العصبيّة : لبن الحمّية ، وهو مَثَل . نفثة : كلمة . البذل : العطاء . والردّ : المنع . الحبا : عقد اليدين على الركبتين . رَسَوْا : ثبتوا . الرّبا : الكُدَى .

* * *

فَلَمَّا آنَسَ حُسْنَ إِنْصَاتِهِمْ ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ ، قال : يا أُولِى الأَبْصَار الرَّامِقة ، والْبَصَائر الرَّائقة ؛ أَمَا يُغنى عن الخبر العِيان ، ويُنْبِئُ عن النّار الدّخانُ ؛ شيبٌ لاَئح ؛ وَوَهْنٌ فادِح ، ودَاءٌ وَاضِح ، والباطِنُ فاضح .

ولقد كنتُ واللهِ ممّن مَلَكَ ومَالَ ، وولِىَ وآل ، ورَفَد وأنال ، ووصَل وَصال ؛ فلم تَزَلِ الجوائحُ تَسْحَت ، والنّوائب تَنْحَت ؛ حتّى الْوَكْرُ قفرٌ ، والكفُّ صِفْرٌ ، والشِّعار ضُرّ ، والعيْشُ مُرّ ؛ والصِّبْيَةُ يتضاغَوْن من الطَّوى ، ويتمنَّوْنَ

حُصاصة النَّوى ولم أَقُمْ هَذَا المقَامَ الشَّائن ، وأكشِفْ لكُمُ الدَّفائن ؛ إلاّ بَعْدَ ما شَقيت ولُقيت ، وشِبتُ مِمَّا لَقِيت ؛ فَلَيْتَنِي لم أَكُنْ بقِيتُ . ثمَّ تأوَّهَ تأوُّهَ الأَسِيف ، وأنشد بصوتٍ ضعيف . . . .

* * *

آنس : أبصر . إنصاتهم : سكوتهم . رزانة حصاتهم : رجاحة عقولهم ، والحصاة يكنى بها عن العقل ، قال طرفة :

وإنّ لسان المرء ما لم يكنْ لهُ حَصَاةٌ على عَوْرَاتِهِ لدليلُ[1]

الأبصار الرّامقة : العيون الناظرة . البصائر : جمع بصيرة وهى المعتقد . الرائفة : المعجِبة . العيان : المعاينة ، يقول : معاينتك الشيء تُغنى عن خبرته

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبَر كالمعاينة » .

ينبئ : يخبر . لائح : ظاهر . وَهَن : ضُعف . فادح : مثقل بَيّن . فاضح : أى صاحبه فى شهرة وفضيحة . ملك : كان ملكا أو ملك الأموال العظام فصار ذا مِلك : مال : صار ذا مال . ولِيَّ : صاروا ليا . آل : ساس ، أى صار يسوس الناسَ ، أى يكون عليهم أميراً ، قال عمر رضى الله عنه : ألنا وإبل علينا . رِفْد : وَهَب الرفد . أنال : أعطى النّيل والنوال ، يقال : منه نلته وأنلته . وصل : أعطى صِلة ، والرّفد والنّوال : العطاء . والإيالة : السياسة ، آل الأميرُ رعيّتَه أحسن سياستهم ، وآل مالَه يؤله : أصلحه . صال : بطش وعدّد ، وصال

(١) لم أجده فى ديوان طرفة ، والبيت فى اللسان (حصى) ، ونسبه مع بيت قبله إلى كعب بن سعد الغنوى .

الفحل : هَدَر فى قطيعه . الجوائح : المصائب . تَسحت : تستأصل الأموال . تنحت : تنجر وتأخذ . النوائب : النوازل . الوكر : قعر المنزل : صِفْر : خالية من الدَّرَاهم . الشِّعَارِ : اللباس : يتضاغوْن : يصيحون ، والضّغاء صياح الذئب إذا جاع ، والضّغاء : البكاء بذلّ وخشوع . الطَّوَى : الجوع . مصاصة : مايمصّ منه . الشائن : العائب صاحبَه . شَقِيت : أدركنى الشقاء . لُقيت : أصابتنى لَقْوة . تأوّه : توجّع ، وقال أوّه . الأسيف : الحزين .

* * *

أشكو إلى الرّحْمَنِ سُبْحانَهُ تَقَلُّبَ الدَّهرِ وعُدْوَانَهُ
وحادثاتٍ قَرَعَتْ مَرْوتى وقَوَّضَتْ مَجْدِى و بُنْيَانَهُ
واهْتَصَرَتْ عُودِى ويَاوَيْلَ مَن
تَهْتَصِرُ الأحـــداثُ أغصانَهُ

وأمْحَلَتْ رَبْعى حتَّى جَلَتْ مِنْ رَبْعِيَ المَحْلِ جِرْذانَهُ
وغادرتْنِي حائراً بائراً أَكَابِدُ الْفَقْرَ وأشجانَهُ
من بَعْدِ ما كنتُ أُخا ثَرْوةٍ
يَسْحَبُ فى النِّعمـــةِ أردانَهُ

يختبطُ العافون أوراقَهُ ويحمد السّارُون نيرانَهُ
فأَصْبَحَ اليومَ كأَنْ لم يكنْ أعانَه الدَّهْرُ الذى عانَهُ
وازوَرَّ مَنْ كان له زائراً !
وعاف عافِي الْعُرْفِ عِرْفانَهُ

فهل فتى يحزنُهُ ما يَرَى من ضُرِّ شيخٍ دهرُهُ خانَهُ
فيَفرِج الهمَّ الَّذى هَمَّـــــه ويُصْلِحَ الشأن الذى شانَهُ

* * *

عدوانه : ظلمه . قرعتْ مَرْوتى : ضربت صخرتى ، وأراد بها نفسه . قوّضت : نقضت وهدمت . اهتصرت : كسرت وحتّتت ، وهَصْرُ الغصن : تعطُّفه وانحناؤه ، وضرب بالمَرْوة والعود أمثالا وهو يريد جسده وماله. أمحلته: جعلته مَحْلاً . جلَت: طردتْ . المحل : الذى لا نبات فيه ولا رزق . جرذانه : فئرانه ، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى. بائرا : هالكاً. أكابد : أقاسى . أشجانه : أحزانه . أخا ثروة : صاحب غنى . يسحب . يجرّ . أردانه : أذياله . يختبط : يطلب . العافون : الطالبون للرزق ، وخبطت الورق : ضربتُها بالعصا ، فتسقط فتعلفُها الإبل ، فيضرب بها المثل لعطية الكريم ، وأنشد زهير[1] :

وليس مانِعَ ذِي قُرْبَى وذى رَحِمٍ[2] يوما ولا معدماً من خَابِطٍ وَرَقَا

السارون : الماشون بالليل . عانه : أصابه بالعين . ازورّ : انقبض . عاف : كَرِه . عافى العُرْف : طالب المعروف . عرفانه : معرفته . همّه : أذابه . وشَانَهُ : عابه .

[من كلام الأعراب]

ومن كلام العرب فى هذا الباب، ماحَكَى الأصمعىّ رحمه الله: أنّ الأعراب أصابتْهم سنوات كثيرةٌ جدْبة ، فدخلت طائفة منهم البَصْرة وبين أيديهم أعرابىّ يقول : أيّها الناس ، إخوانكم فى الدين ، وشركاؤكم فى الإسلام ،

(١) ديوانه : ٥٢ .
(٢) الديوان : « وذى نسب » .

عابرُو سبيل وفلاَّل بؤس ، وصَرْعى جَدْب ، تتابعت علينا سنون ثلاث غيَّرت النِّعم ، وأكلت النَّعَم ، فأكلنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلِّل بذلك نفوسنا ، ونمنّى بالغيث قلوبَنا ، حتى عاد مختاراً ، وعاد إشراقُنا ظلاما ، فأقبلنا إليكم يصرَعنا الوعر ، ويُنْكينا السهل ، وهذه آثار مصائبنا لائحة فى قَسَمَاتِنَا . فرحم الله متصدّقاً مِنْ كثير ، أو مواسياً من قليل ، فلقد عَظُمت الحاجة ، وكَسِفَ البال ، وبلغ المجهود ، والله يجزى المتصدّقين .

وقف أعرابىّ على حَلْقة يونس النحوىّ ، فقال : الحمدُ لله ، وأعوذ به أن أُذَكَّر به وأنساه ، إنّا أناس قَدْ قدمنا هذه المدينة : ثلاثون رجلا ، لاندفن ميّتاً ، ولانتحوّل عن منزل ، وإن كرهناه ، فرحم الله عبدًا تصدّق على ابن سبيل ، ونضْوِ طريق ، وفَلِّ سَنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولاغنى عن الله . ولا عمل بعد الموت ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فيضاعفه له ﴾ ، إن الله لا يستقرض من عَوَزٍ ، ولكن ليبلوَ أخبارَ عباده .

قال الأصمعىّ رحمه الله : وقف أعرابىّ علينا ، فقال : تتابعت علينا سنون ، بتغيير وانتقاص ، فما تركت لنا ضَيَعاً ولا رَيْعاً[1] ، ولا نافطة ولا عافطة[2] ، ولا ثاغية ولا راغية[3] ، فأماتت الضَّرْع وأفنت الزَّرع ، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا مِنْ عطيّة الله إياكم ، وارحموا أبا أيتام ، وأنضاء زمان ، فلقد خلَّفْتُ أقواما لا يمرّضون مريضَهم ، ولا يُكَفِّنون ميّتهم ، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه ، ولقد مشيت إليكم حتى انفعلتُ الدماء ، وجُعْت حتى أكلت النوى المحرقة .

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقالت :

---

(١) الضيع جمع ضيعة ، وهى العقار . والريع : مسيل الوادى من كل مكان مرتفع .
(٢) العافطة : النعجة ، وكذلك النافطة .
(٣) الثغاء : صوت الغنم ، والرغاء : صوت البعير أو الناقة .

إنّى أتيت من أرض شاسعة ، تهبطنى هابطة ، وترفعنى رافعة ، فى ملحّات من البلايا ، بَرَيْنَ لحمى ، وهضْن عظمى ، وتركتنى والهة ، وقد ضاق بى البلد ، بعد الأهل والولد ، وكثرة العدد ، لا قرابة تؤوينى ، ولا عشيرة تحمينى . فسألتُ أحياء العرب : مَن المرتجى سَيْبُه ، المأمون عيبُه ، الكثير نائلُه ، الكفىّ سائله ، فدُلِلْت عليك ، وأنا امرأة من هوازنَ ، فقدت الوالد والرافد ، فاصنع فى أمرى واحدة من ثلاث : إمّا أن تحسِنَ صفدَى ، وإما أن تقيم أوَدِى[1] ، وإما أن تردّنى إلى بلدى ، فقال : بل أجمعهنّ لك ففعل بها ذلك .

خرج المهدىّ يطوف بالبيت بعد هَدْأة من الليل ، فسمع أعرابيّة من جانب المسجد ، وهى تقول : قوم متظلّمون ، نبتْ عنهم العيون ، وَفَدَحَتْهم الديون ، وهضّتهم السُّنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من آمرٍ بخيرٍ كلأه الله فى سفره ، وخَلَفه فى أهله ! فأمر لها بخمسمائة درهم .

ومما جاء فى ذم السؤال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأَنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيحتطب فيه أهونُ من أن يأتىَ رجلا أعطاه الله من فضلِه فيسأله ؛ أعطاه أو منعه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فتح على نفسه باباً من السؤال ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » .

وقال أكثم بن صيفى : كلّ سؤال وإن قلّ أكثر من كلّ نوال وإن جلّ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : المساكين لا يعودون مريضاً ، ولا يشهدون جنازة ، ولا يحضرون جمعة ، وإذا اجتمع الناس فى أعيادهم ومساجدهم يسألون

(١) الصفد : العطاء . والأود : الاعوجاج .

الله من فضله ، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم .

سأل سائل بمسجد الكوفة فلم يُعطَ شيئاً ، فقال : اللهمّ إنك بحاجتى عالم لا تعلّم ،أنت الذى لا يعوزك نائل ، ولا يلحفُك سائل، ولا يبلغ مدحك قائل ؛ أسألك صبراً جميلا ، وفرجاً قريباً ، وبصراً بالهدى ، وقوّة فيما تحب وترضى . فتبادروا إليه بالعطية ، فقال : لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً ، ثم خرج وهو يقول :

ما نال باذلُ وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النّوال مع السؤال وزنته رَجَح السؤال، وخفّ كلّ نَوَالِ
وإذا ابليت ببذل وجهكَ سائلاً فابذله للمتكرّم المِفْضَال

وقال بعض الأدباء : المخذولُ مَنْ كان له إلى اللئام حاجة .

وأنشد الجاحظ فى نوادره لأعرابىّ :

سير النّواعج بالقليعة فى الضّحَى يمشى الذليلُ بها على بلْبالِ
خيرٌ من الطمع الدنىء ومجلسٍ بفناء لا طلق ولا مِفضَالِ
فابْثُثْ حوائجكَ للكريم فإنه يغنيك قبل تخشُّعٍ بسؤالِ

* * *

قال الراوى : فصَبَتِ الجماعةُ إلى إنْ تَسْتَثْبِتَه ، لتَسْتَنْجِسَ خُبْأَتَه ، وتَسْتَنْفِضَ حَقِيبتَه ، فقالت له : قَدْ عَرَفنا قَدْرَ رُتبَتِك ، ورأَينا دَرَّ مُزْنتِك ؛ فعرِّفْنا دَوْحَةَ شُعبَتِك ، واحْسِرِ اللِّثامَ عن نِسْبَتِك . فأَعْرضَ إعْرَاضَ مَنْ مُنِىَ بالإعْنَاتِ ، أو بُشِّر بالْبنَات ، وجَعلَ يلْمَنُ الضَّرُورات ، ويتأَفَّفُ مِنْ تَغَيُّض المرُوءات . ثم أَنْشَدَ بلفظ صادِعٍ ، وجَرْسِ خادِعٍ :

لَعَمْرُكَ ما كلّ فرعٍ يدلُّ جناهُ اللّذيذ على أصْلِهِ
فَكُلْ ما حَلاَ حِينَ تُؤْتَى بِهِ ولا تَسْأَلِ الشَّهْدَ عَنْ نَحْلِهِ
ومَيِّزْ إِذا ما اعْتَصَرْتَ الكروم
سُلاَفَةَ عَصْرِكَ من خَلِّهِ
لِتُغْلِي وتُرخِصَ عن خِبْرةٍ وتَشْتَرى كلاًّ شِرَا مثلِهِ
فمارٌ على الفَطنِ اللَّوْذَعىّ دُخُولُ الغميزةِ فى عَقْلِهِ

* * *

قوله : تَسْتَثْبته : تحقق مَنْ هو . تستنجش ، تستخرج ، والنَّجَش : استخراج الشيء المجهول المستور . وقيل : تنفير الوحْش ، وهو من الأوّل، لأنّ تنفير المطمئن كإظهار الكامن . خبْأته : سرّه الّذى أخبرهم بظاهره حيث قال : كيت وكيت .

الحقيبة : وعاء يعلِّقه الرجل خلف رَحْلِه ، يجعل فيه ما يعز عليه ممّا يحتاج أن يتناوله متى شاء ، وأراد بها ها هنا موضع سِرّه تستنفض : تنثر ما فيها . رتبتك : قدرك ومنزلتك . دَرّ مُزْنتك : ماء سحابك ، وأراد ما أبدى لهم من البلاغة . دوحة : شجرة . شعبتك : فرعك وغصنك . احْسِر : أزِل واكشف . اللّثام : ما يُجعَل على الأنف والفم ، يريد عرّفنا أصلك ، ومن أين أنت . مُنِىَ : بُلِىَ . الإعنات : المشقة ، وعنّته وأعنته : كلّفته ما يشقّ عليه . وبُشّر بالبنات : أُخبِر بولادتهنّ ، وقد أخبر الله تعالى أن مَنْ بُشّر بالأنثى ظلّ وجهُه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارَى مِنَ القَوم مِن سُوء ما بشّر به . وقد تقدّم وأد البنات وهو دسّهنّ فى التراب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر : « لا تكرهوا البنات فإنهنّ المؤنسات الغاليات » . وقال عليه الصلاة والسلام « أحبّوا البنات ، فإنّي أبو البنات » ، وإنّ الرجل إذا ولدت له ابنةٌ هبط إليها مَلَكان فمسحا على ظهرها ، وقالا : ضعيفة خرجت من ضعيف ، مَنْ أعان عليكِ لم يزل يصاب إلى يوم القيامه .

قوله : يتأفف ، يقول : أف أف ، وهو من فعل المهموم الملهوف . تغيُّض المروءات : ذهاب الأفعال الحسان . صادع : شديد يشقّ الأذن . جرس : صوت . جناه : ما يجتنَى منه . الشهد : العَسَل ، أى كل العسل ، ولا تسلْ عن النحل التى صنعته ، ولا مِنْ أين هو ، ضربه مثلا لترك سؤالهم عنه ، إذ أفادهم . سُلافة : خمر لم تُعْصَر . عصرك : تعصيرك . خِبرة : معرفة وتجربة . الأَوْذَعِيّ : الذكى . الغميزة : ضعف التدبير والنظر ، لأنّ الذى لا يحسن التدبير ، والنظر إذا سقط غمزه الناس وعابوه .

* * *

قال : فازْدَهَى القَوْمَ بذَكَائِه ، واختَلَبَهُمْ بِحُسْنِ أَدَائه مع دائه ، حتَّى جمعوا له خبَايا الخَبَن ، وخفَايا الثُّبَن ، وقالوا له : يا هذا ، إنَّك حُمْتَ على رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ ، وتعرّضت لِخَلِيَّةٍ خَلِيَّة . فخذ هذه الصُّبابة ، وهَبْهَا لا خطأً ولا إصابة .

فنزّلَ قُلَّهُمْ مَنْزِلَةَ الكَثْر ، ووصَلَ قبولَهُ بالشُّكْرِ . ثم تولَّى يجرُّ شِقَّهُ ، ويَنْهَبُ بالخبْطِ طَرْقَهُ .

قال المخبرُ بهذهِ الحِكايَةِ : فصُوِّرَ لِى أَنَّهُ مُحيلٌ لِحَلْيتِه

متصنّعٌ فى مِشْيتِهِ . فنهضتُ أَنْهَجُ مِنْهاجَه ، وَأَقْفُو أَدْرَاجَه ؛ وهُوَ يَلْحَظُنِى شَزْرًا ، ويَوسِعُنِى هَجْرًا ؛ حتَّى إذا خَلاَ الطريق ، وأَمْكَنَ التَّحقيق ، نَظَرَ إِلَىَّ نَظَرَ مَنْ هَشَّ وَبَشَّ ، وما حضَ بَعْدَ ما غَشَّ ، وقال : إِنِّى لإخالُكَ أَخَا غُرْبَة ، ورائدَ صُحْبَة ؛ فهلْ لك فى رفيقٍ يَرْفُق بِكَ ويُرافِق ، وَيَنْفُقُ عليك ويُنْفِق ؟ فقلت له : لو أتانى هذا الرفيقُ لَوَاتانى التَّوفيق . فقال لى : قدْ وَجَدْتَ فاغتبط ، واسْتَكْرَمتَ فارتبِطْ .

* * *

ازدهى : دعاهم إلى الزهو والإعجاب به . ذكائه : حدّة ذهنه . اختلبهم : خدعهم . الخبْن : أطراف الثوب ، كالكم وغيره ، والثُّبَنُ : أطراف الرداء وشبهه ، والخُبْنة فى الثوب الخيط ، وقد خبنته عطفته وكففته بالخياطة ، وقيل : الخَبْن القَبض ، والخُبْنة لما بلى من حُجْزة السراويل والإزار ، والجمع خُبَن ، والثُّبنة ما بلى الظهر من السراويل والإزار . حُمْتَ : حلقت . ركية : بئر . بكية : قليلة الماء . خلية : جَبْح النحل حيث كان من حجر أو شجر ، وقيل الخلية الخشبة المنقورة لها خاصة ، والخلية فى غير هذا السفينة ، فشبّهت خلية النحل بها . خلية : فارغة ، الصُّبابة : الشىء القليل إذا أخذ منه بكثرة . انخبط : أراد به أخذ الأموال بالسؤال ، يقال : خبطت الشجرة خبطاً ، نفضتُ ورقها ، أراد أنه كان يجرّ جانبه المعلّ ، فكلّ مَنْ مرّ به وسأله رحمه . مخيل : مغير . حِلْيَتُه : خلقته وصفاته . نهضت : تقدّمت للمشى . أنهج منهاجه : أمشى فى طريقه . أقفو أدراجه : أتبع آثاره . يلحظنى : ينظرنى .

شزراً ، أى فى جهة بمؤخر عينه . قال ابن الأنبارىّ : نظر إلىّ شزرا ، أى نظر إلىّ من جانب عينه من شدّة العداوة والبغضاء ، يقال : شزر يشزَر ، إذا نظر

من جانب عينه من العداوة أو من الفَرَق . ويُوسعنى هجراً ، أى يكثر تجنّبى ومباعدتى . هشّ : خفّ واهتزّ . بشّ : حسن اللقاء ، ويقال : بش فلان بفلان ، إذا سرّ به وفرح وانبسط إليه ؛ ويقال : تبشبش به بمعنى بشّ به ، والبشاشة والهشاشة الطلاقة والتبسّم . ماحض : أخلص ودّه . غشّ ، ضد أخلص ، ويقال : غشّه ، أى عمل فيما يحبه شيئاً قليلا وخلطه بما يسوءه ، أخذ من الغشش ، وهو الشراب الكدر . إخالك : أحسبك . رائد : طالب . يرفق بك : يلاطفك ويكون بك رفيقاً . يرفق : يوليك مرافقة ، أى يعينك بماله حتى يجد معها الرفق . لواتانى : لوافقنى . اغتبط ، أى كن به مغتبطا أى محبًّا فى بقائه ، والغِبْطة : حسن الحال . استكرمت فارتبط ، أى اتّخذت كريماً ، وجاء هذا اللفظ فى حكاية ذكرها أبو علىّ ، وهى أنّ فتى من العرب جاء إلى أمّه ، وقد عميت فقال لها : يا أمّه ، إنى اشتريت فرساً ، فقالت : صفه لى ، قال : إذا استقبل فظْبى ناصب ، وإذا استدبر فهِقْل[1] هاضب ، وإذا استعرض فسِّيد[2] قارب ، موالى المسمعين ، طامح الناظرين ، مدعاق الطُّبيين ، قالت : أجدْت إن كنت أعربت ، قال : إنه مشرف التّليل ، سبط الخصيل ، وهواه الصهيل ، قالت : أكرمت فارتبط[3] .

. . .

ثمّ ضَحِك ملِيًّا ، وتمثَّل لى بشراً سَوِيًّا ؛ فإذا هو شيخنا السَّرُوجىّ ، لا تَلَبَةَ بجسمه ، ولا شبهةَ فى وَسْمِه ؛ ففرحتُ بلُقْيَتِه ، وكَذِب لَقْوَته ، وهَمَمْتُ بمَلاَمَتِه ، على سوء مَقَامَتِه ، فشحَا فاه ، وأَنْشدَ قبل أن ألحاه :

ظَهَرْتُ بِرَثٍّ كَيْمَا يقالُ فقيرٌ يُزَجِّى الزَّمانَ المُزَجَّى

(١) الهقل : الفتى من النعام ، والهضب : نوم من السير .
(٢) السيد : الذئب ، والقرب : نوم من السير .
(٣) مجمع الأمثال ٢ : ١٤١

وأظْهَرْتُ لِلنَّاس أنْ قَدْ فُلِجْتُ

فكَمْ نال قلبِى بِهِ ما تَرَجَّى

ولولاَ الرَّثَاثَةَ لم يُرْثَ لى ولولاَ التَّفالُجُ لم أَلْقَ فُلْجَا

ثمَّ قال : إنَّه لم يَبْقَ لِى بهذِه الأرْض مَرْتَع ، ولاَ فى أَهلها مطمع ؛ فإن كنتَ الرفيق ، فالطريقَ الطَّريقَ . فسِرْنا مِنْها مُتَجرِّدَيْن ، ورافقتُه عامَيْن أَجْرَدَيْن . وكنتُ على أن أصحبه ما عِشتُ ، فأَبَى الدَّهرُ المُشِتّ .

* * *

قوله : مليًّا، أى طويلا . قُلبة : عِلّة. قال الكسائى رحمه الله : مابه قُلْبة ، أى شىء يقلقه فينقلب من أجله على فراشه لعلّته . وقال الفراء رحمه الله : مابه من وجع يُخاف عليه منه ، من قولهم : قلُبَ الرجل إذا أصابه وجع فى قلبه ، فلا يكاديَنقلب منه . قال الأصمعىّ رحمه الله : معناه مابه داء ، مأخوذ من القُلاب، وهو داء يصيب الإبل فى رءوسها فيقلبها إلى فوق. شبهة : التباس وتغيّر . وسمْه : صفاته. اللُّقيَة : المرّة الواحدة من اللقاء . وقال فى الدّرة[1] : العرب تقول : لقية ولقاءة ولقاية، إذا أردوا المرّة الواحدة ، فإن أرادوا المصدر ، قالوا : لقيته لقاء ولَقًى ولُقيًّا ، هذا وأنشد :

وإنّ لقاها فى المنام وغيره وإنْ لم تجد بالبَذْلِ عندى لرابحُ

وخطّأ من يقول : لقيته لقاءة واحده ، وأغفل أنّ سيبويه قال فى كتابه : أنيته إنيانةً ، ولقيته لقاءة واحدة .

(١) درة الغواص ٩٣

والقوة : استرخاء اللحى وعَوَجه . مقامته : مجلسه الذى كدى به شَحَاذاه : فتحه قال جرير :

وُضِع الخزير فقيل أين مجاشع فشحا جحافِلَه جُراف هَبْلَع[1]

الخزير، بنقط الخاء ثم زاى: دقيق يلبك بشحم ، وجراف الشيء سخونة. ألحاه : ألزمه . يزجّي : يسوق . المزجى : القليل الخير ، وهذا كما قال : لبست الحميصة أبغى الخبيصة .فُلجت: أصيبت بفالج. الرثاثة:سوء الحال. التفالج: استعمال الفالج ، وهو خَدَرٌ يصيب الجسد. فلجاً : فوزا وظفرا. مَرْتع: موضع يَرْعى فيه. مُنْجَرِدَيْن: مُسْرعين، وانجرد الرجلُ فى سيره ، إذا جدّ فى الذهاب. أجردين: تامّين كاملين ، وسرتُ يوماً وشرًا وحولا أجرد ، وجريدًا أى تاما ، قال سُويد بن كراع :

وجَشّمنى خوف ابن عفان ردّها فثقّفتُها حولاً جريدا ومَرْبعا[2]

الشتّ : المفرّق .

(١) ديوانه ٣٤٥ (٢) الشعر والشعراء ٦١٧

المقامة الرابعة والثلاثون وتعرف بالزبيدية

أخبر الحارث بن همّام ، قال : لمّا جبتُ البيدَ إلى زَبيد ، صحبَنى غلامٌ قد كنت رَبَّيتُه إلى أن بلَغَ أشدَّهُ ، وثقّفتُه حتّى أكملَ رُشْدَه .

وكان قد أنِسَ بأخلاقى ، وخَبَر مجالبَ وِفاقي ؛ فلم يكُنْ يتخطَّى مرامِى ، ولا يُخطِئُ فى المرامِى ؛ لا جـــرم أنّ قُربَهُ التاطتْ بصَفرِى ، وأخلصْتُه لحضَرِى وسَفَرِى ، فألوَى به الدّهرُ المُبيدُ ، حين ضَمَّنَا زبيد .

* * *

جُبْت : قطعت . البِيد : الصحارى .

زَبيد : بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا ، وليس فى اليمن بعد صنعاء أكبر منها ، ولا أغنى من أهلها ، ولا أكثر خيرا ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره ، وهى برّية لا ساحلية .

وبلغ أشدّه : أى بلغ الحلم ، وقيل ثلاثين سنة. قال الأزهرىّ رحمه الله تعالى: الأشدّ فى كتاب الله تعالى على ثلاث معان : أما قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام ﴿ ولمّا بلَغ أشدّه آتيناه حُكْمًا وعلْما ﴾[1] فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا فى اليتيم ، حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشدّه ، وبلوغه أشده أن يُؤنس الرُّشد منه مع أن يكون بالغا .

(١) سورة يوسف ٢٢

وأما قوله تعالى فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمَّا بلغ أشدَّه واستَوَى﴾[1] فقرن بلوغ الأشد بالأستواء وهو أن تجتمع قوّته ، ويكتهل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب . وأما قوله تعالى ﴿حَتَّى إذَا بلَغ أشدّه وبلغ أربعين سنة﴾[2] فهى نهاية بلوغ الأشد ، وعندها بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمعتْ حكمته وتمام عقله ، فبلوغ الأشدّ محصور البداية محصور النهاية مابين ذلك .

ثقفته : قوّمته وحَذَقته . خبر : أى جرّب وعَرَف . مجالب وفاق : أى عَرف من أين يُجلب مايوافقنى . يتخطّى : يتجاوز . مرامى : مرادى ومَقْصدى . لاجرم ، أى لامحالة ولابدّ ، ثم صارت بمعنى حقًّا . قُرْبة : ماُيتقرب به إلى من المبرّة . التاطت : لصقت . بصفَرى : بنفسى وقلبى ، والصَّفَر دود فى البطن ، إذا جاع الإنسان عضَّت شراسِيفَه ، وهى رقيق البطن ، قال أعشى باهلة :

* ولا يَعضّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ *[3]

فيريد أن هذا الغلام مهذّب يأتى بمحاولاته على الوفاق ، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نعمّا للمملوك أن يتوفاه الله ، بحسن عبادة ربه ، وطاعة سيّده نعما له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة ربّه فله أجران » .

أخلصته : أفردته . ألوى : ذهب به وأهلكه . المبيد : المهلك . وننشد هنا أبياتا لابن الحضرمى فى غلام هلك للمتوكّل ببطليوس :

غالته أيدى المنايا وكُنّ فى مقلتيه

---

(١) سورة القصص ١٤ (٢) الأحقاف ١٥ (٣) الكامل ٤ : ٦٥ ، وصدره :

* لاَ يَغْمِزُ السَّان من أينٍ ولا وَصَبٍ *

وكان يَسْقى الندامى بطـــرفه ويَدَيْه
غُصن ذَوَى وهلالٌ جاء الكسوفُ عليه

ويُستحسن لابن همام أن ينشد فى وصف هذا الغلام :

حين تَمَّت آدابُهُ وتردَّى برداء من الشَّباب جديدِ
وسقاه ماء الشبيبة فاهْتـــزّ اهتزاز الغصن النّدىّ الأملودِ
وسمت نحوه العيون وماكا نَ عليه لزائدٍ من مَزِيدِ
وكأنّى أدعوه وهو قريبٌ حين أدعوه من مكان بعيدِ

وأنشد بعضهم :

نأى آخر الأيام عنك حبيبٌ فللعين سَحٌّ دائم وغروب[1]
كأن لم يكن كالغصْنِ فى مَيْعة الضُّحى
سقاه النـــدى فاهتزّ وهو رطيبُ
وريحان صدرى كانَ حين أَشَمُّهُ ومؤنس قَصْرِى كان حين أغيبُ
وكانت يدى ملآنة ثم أصبحتْ بمُنْد إلهى وهىَ منه سليبُ

* * *

فلمَّا شالتْ نَعامتُه ، وَسَكنَتْ نَأْمتُـــه ، بقيتُ عامًا ، لا أسيغَ طعامًا ، ولا أُريغُ غُلامًا ، حتَّى ألجأتنى شَوَائبُ الْوَحْدَة ، وَمَتَاعِبُ القَوْمَةِ والْقَعْدَةِ ؛ إلَى أَن أَعتاضَ عن الدُّرّ الخَرَز ، وارتادَ مَنْ هُوَ سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ ؛ فقصَدْتُ مَنْ يَبيع العبيدَ ، بسُوقِ زَبيد ، فقلتُ : أريدُ غلامًا يُعْجبُ إذا قُلِّبَ ، وَيُحْمَدُ

(١) لإبراهيم بن المهدى يرثى ابنه ، وهى قصيدة وردت فى الكامل ٤ : ٢٣ ــ ٢٥ ، ومنها هذه الأبيات .

إِذَا جُرِّب ؛ ولْيَكُنْ مِمَّنْ خَرَّجَهُ الأَكْيَاس ، وأَخرَجه إِلَى السُّوقِ الإفلاَس ؛ فاهْتَزَّ كلٌّ مِنْهُمْ لِمَطْلَبِى وَوَثَب ، وبَذَل تَحْصِيلَهُ عَنْ كَثَب . ثمَّ دارت الأَهِلَّة دَوْرَهَا ، وتقلَّبَتْ حَوْرَها وكَوْرها ، وَمَا نجزَ من وَعُودِهِمْ وعْدٌ ، ولا سَحَّ لهَا رَعْد .

فَلَمَّا رأيتُ النَّخَّاسِينَ ، ناسِينَ أو مُتَنَاسِينَ ، علمتُ أَنْ لَيْسَ كلُّ مَنْ خَلَق يَفْرِى ، وأَنْ لَنْ يَحُكَّ جِلْدِى مثلُ ظُفْرِى . فَرَفَضْتُ مَذْهبَ التَّفويض ، وبَرَزْت إِلى السُّوق بالصُّفْر والبِيض .

* * *

شالت نعامته ، أى ارتفع نعشه . ويقال فى المصلوب : شالت نعامته ، أى ارتفعت خشبتُه ، وشالت نعامة القوم ، أى ولَّوْا منهزمين ، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للانهزام والهلاك والتفرّق . وأنشد الشاعر :

تَلقى خصاصةَ بيننا أرماحُنا شالتْ نعامةُ أيِّنا لم يفعل

يخاطب أعداءه وقد وافقهم ، يقول : هلّم نلقى فى الفُرْجة الّتى بيننا أرماحنا ، ونضرب بالسيوف ، هلك وانهزم مَنْ لم يفعلْ ، يدعوعليه وينسب ذلك النعامة ، لأنّ النعام موصوف بالشَّخف والرِّق والشراد . فإذا قالوا : شالت نعامتُهم ، وخفَّتْ نعامتهم ، ورَقّ رأيهُم ، فمعناه إذا تركُوا مواضعهم بجلاء أو بموت . ويقال : أحمَقُ من نعامة ، لأنها تنشر للطعام ، فربما رأت بيضةَ نعامةٍ أخرى وحدها فتحضُنها ، وتنسى بيضَتَها ، ثم تجىء الأخرى فترى على بيضتها غيرها ، فتمضى لوجهها ، وإياها عنى ابن هَرْمه بقوله :

كتاركة بيضها بالعراء وملبسةٍ بيض أخرى جَناحا[1]

قاله الجاحظ :

وأما أبو عبيدة فقال : عنى الحمامة . وقال ابنُ الاعرابىّ ، بيضة البلد التى سَار بها المثل هى بيضة النعامة التى تتركها فلا تهتدى إليها فتفسد فلا يقربها شىء . قال الراعى :

لو كنتَ من أحد يُنجَى هجوتكمُ
يا ابنَ الرّقاع ولكن لستَ من أحدِ[2]
تأبَى قضاعة أن ترضَى لكمْ نسبًا[3]
وابنا نزار فأنتمْ بيضةُ البلدِ

قوله : نأمته ، أى حركته التى تنمو بحياته. وزعموا أنّ النّامّة بوزن العامّة، عِرْق اليَافوخ . أسيغُ طعاما : استسهِلُ بَلْعَه . أرِيغ غلاما : أطلبه . السِّدَاد : اسم مايسدّ به الشىء ، مثل سِداد القارورة وهو صمامها ، وسِداد الفقر مايذهبه ويكتفى به من المال ، وسِداد الثّغر مايذهب خوفه من الخيل والرجال ، والسّداد بالفتح : الإصابة فى المنطِق، وقال يعقوب: السّداد والسِّداد بمعنًى واحد ، وسنعيد ذكره فى أخبار العرجى .

والعَوَز : فقد الشىء فإنه أراد عبدا يَسُدّ به فَقْد غلامه الميِّت . إذا قُلِّب أى إذا قلِبت خلقته وجدت كلّ جزء منها حسنا . خرّجه : حَذّقه وربّاه . الأكياس : أهل الفطنة والحذق . والإفلاس : الفقر . وثب : قفز وعجِل إلى

(١) ديوانه ٨٧ ، قال فى شرحه : « يضرب مثلا لمن ترك مايجب عليه الاهتمام به والجد فيه ، واشتغل بما لايلزمه » .
(٢) اللسان ـ بيض ، والبيت الثانى فى المضاف والمنسوب ٤٩٦ .
(٣) اللسان : « تأبى قضاعة لم تعرف لكم نسبا » .

المشى . بذل : أعطى ، تحصيله : وجوده وحصوله . كَثَب : قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصوله فى أقرب مدة . دارت الأهلة دورها ، أى كملت الستة وكملت الأهلة فيها بالطلوع . كَوْرها وحَوْرها : زيادتها ونقصانها ، وقد تقدّم الكور والحوْر . نجز : حضر . سَحّ : أمطر .

النخّاسين : الدلاّلين للعبيد والدواب . ثعلب : أُخِذ من النَّخْس وهو الدفع ، فمعنى النخاسين الذين يشترون العبيد ليدفعوهم إلى غيرهم . ليس كلُّ مَنْ خلَق يفرِى ، مثل، وخلق قدّر ، يقال: خلق الصانع الجلد ، إذا قدر مايقطع منه ، وقيل: الخَلْق:القَطْع،والفَرْى : القطع أيضاً ، ولكن تقديرا ، فمعنى المَثَل: ليس كلّ من قطع شيئاً قدّر مايقطع به ، ويفرِى أيضاً : يُحسن القطع على جهة الإصلاح . قال زهير :

ولأنْتَ تفرِى ماخلقْتَ وبعـــضُ القوم يَخْلُق ثم لايَفْرِى[1]

ويقال أيضاً : خلق الشىء صنّفه ، وفَرَاه : أفسده ، وأراد ليس كلّ الناس يحسن شراء العبيد .

قوله : لايحك جِلْدى مثل ظفرى هو مثل يضربُ فى ترك الاتكّال على الناس ، قال الإمام الشافعىّ رضى الله عنه :

ماحكّ جلدكَ مثل ظُفْرِكْ فتولّ أنتَ جَمِيعَ أمْرِكْ
وإذا قَصَدْتَ لحاجةٍ فاقصد لمعترف بقَدْرِكْ

رفضت : تركت . التفويض : أن يتّكل الرجل على غيره ويسلّم أمره إليه . الصُّفْر والبيض : الدّنانير والدراهم .

* * *

فإنّى لأستَعْرِضُ الغِلْمَان ، وأستَعْرِفُ الأثمان ، إذْ عارَضنى رجلٌ قد اختَطَمَ بلِثامٍ ، وقَبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلام ، وقال :

(١) ديوانه ٩٤

مَنْ يَشْتَرِى مِنِّى غُلاَمًا صَنَعاً
فى خَلْقِهِ وَخُلْقِهِ قَدْ بَرَعـــا
بـكلِّ ما نُطْتَ به مُضْطلِعـا
يَشفيك إن قال وإن قلتَ وعَى
وإن تُصِبْكَ عَثْرةٌ يقُـــلْ لَعا
وإن تَسُمْهُ السَّعْىَ فى النـار سَعَى
وإن تُصاحِبْهُ ولَوْ يوماً رَعَى وإن تُقنِّعْهُ بِظِلْفٍ قَنِعاَ
وهو على الـكِنْسِ الذى قَدْ جَمعا
ما فاه قـــطُّ كاذِبًا ولا ادّعَى
ولا أجابَ مطمعًا حين دعا ولا استجاز نَثَّ سِرٍّ أودِعَا
وطَالَمَا أَبْدَعَ فيما صَنَعـاَ وفاق فى النثر وفى النَّظمِ مَعا
واللهِ لوضَنَّكَ عَيْشٍ صَدَعاَ وصِبْيَةٌ أَضحَوْا عُراةً جُوَّعا
* ما بعتُه بمُلكِ كِسْرَى أجمعاَ *

قال : فَلَمَّا تأمّلتُ خَلْقَهُ القويم ، وحُسْنَهُ الصَّميم ، خِلتُه مِنْ وِلْدَانِ جَنّـةِ النَّعِيم ، وقُلتُ : ما هذا بشراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كريم.

* * *

أستعرض: أطلب أن يُعرَض علىّ ، وعارضنى: قابلنى . أستَعرِف : أطلب معرفته . اختطَم : جعَل اللثام على طرف الأنف ـ وهو الخَطْم والخُرطوم للسباع ـ واللثام : ما كان على الأنف من النقاب . والزَّنْد : طرف عظم الساعد المتّصل

بالكف ، فهو قد قبض على أرق موضع فى الذراع . الصّنَع : الحاذق بالصناعة ، والمرأة صَنَاع . برع : فَضَل وفاق غيره . نُطْتَ : عَلِقت . مضطلعاً : مكتفيا قوياً عليه . وعى : حفظ . لعاً ، كلمة تقال للعاثر ـ يعنى : أقال الله عثرتك ، وسلّمك الله ـ تَسُمّه السَّعْى : تكلّفه المشى . رَعى : حفِظ الصحبة . الظِّلْف للشاة بمنزلة الحافر للدابة . الكَيّس الحاذق . فاه : تكلّم .

ثم قال : لم يدعه الطمع قطّ فأجابه . استجاز : استحلّ . نَثّ : نشر ، أبدع : أغرب وأتى بما لم يُسبَق إليه . ضَنْك : ضِيق . صَدْع : كسر ، وأنشدوا فى هذا المعنى :

وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ علائقَ من ربٍّ بهنّ ضَنِينِ

خلْقه القويم : المعتدل القامة . الصميم : الخالِص ، وهو فعيل ، من صمّ الشىء إذا لم يكن فيه فُرْجة ولا خلَل . خِلْتُه : حسبته .

[ذكر الغلمان وأخبار عشّاقهم]

وننشد فى هذه المقامة فى الغلمان ماله سبب وتعلّق بذكر يوسف عليه السلام ، أو يكون الغُلام مملوكًا حتى يوافقَ غرَضَ المقامة .

كان شفيعٌ غلامُ المتوكل أحسنَ الفتيان وأظرفهم ، وكان المتوكّل يُجَنّ به جنونا ، فأحبّ يوما أن ينادم حسين بن الضحاك ، وأن يرى ما بقى من شهوته ـ وكان قد أسنّ ـ فأحضره وسقاه حتى سَكِرَ ، وقال لشفيع : اسقه ، فسقاه وحيّاه بوردة ، وكانت على شفيع ثياب موردّة . فمدّ حسين يده إلى ذراع شفيع ، فقال المتوكل : أتخمِش أخصَّ خدمِى بحضرتى ، فكيف لو خلوتَ به ! ما أحوجك إلى الأدب ! وكان قد غمز شفيعا على العبَث به ، فدعا بدواة فكتب :

وكالوردة الحمراء حيّا بوردةٍ من الورد يمشى فى قَراطقَ كالوَرْدِ[1]

(١) ديوانه ٤٣ ، والأغانى ٧ : ١٧١ ، وفيه : « وكالدرة البيضاء حيا بعنبر » .

له هبَّات عنـد كل تحيّةٍ بكفّيه تستدعى الحليم إلى الوجدِ[1]
تمنّيت أن أسْقَى بعينيْه شَرْبَةً تُذَكّرنى ماقد نسيتُ من العهدِ
سقَى الله دهراً لم أبِتْ فيه ليلةً خليًّا ولـكن من حبيبٍ على وَعْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاها المتوكل : فاستملحها وقال : أحسنت والله ياحسين ! ولو كان شفيع ممّن تجوز هبته لوهبتُه لك ؛ ولـكن بحياتى ياشفيع إلاّ كنتَ ساقيَه بقيّة يومنا . وأمر له بمال كثير .

وكان لمعز الدولة غلام تركىّ ، وكان وضىء الوجه ، منهمكًا فى الشراب ، ولفرْط ميل مولاه إليه جعله رئيس سرّيّة جرّدها لحرب بنى حمدان ، وكان المهلبىّ[2] يستظرفه ويستحسنه ، فقال :

ظبيٌ يُروق المـــاء فى وجَنَاته ويروقُ عودُه[3]
ويكادُ من شبَه العذا رى فيه أن تبدُو نهودُه
ناطوا بمِعْقِـدِ خَصْرِه سيفًا ومِنطقة تئودُه[4]
جعلوه قائدَ عسكرٍ ضاع الرّعيلُ ومَنْ يقودُه[5]

فكانت الدائرة على جيش الغلام ، كما أشار إليه ، ولو غزاهم بالسّلاح الذى أمر به الببغاء غلاماً غازياً وهو :

يا غازياً أتت الأحزانُ غازيةً إلى فؤادىَ والأحشاء حين غزَا[6]
إن بارزتْك رماةُ الرّوم فارمهمُ بسهم عينيْك تقتُلْ كلَّ مَنْ برزا

لـكان الظافر الغالب .

وكان[7] بديع غلام عمير[9] المأمورىّ أحسن خلق الله وجهاً ، وكان

(١) الديوان : « بعينيه تستدعى الحلى » .
(٢) هو الحسن بن محمد ، من ولد قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة . له ترجمة فى اليتيمة ٢ : ١٠٢
(٣) اليتيمة ٢ : ٢٠٣ ، وفيها : « يرق » (٤) يئوده أى يثقله .
(٥) الرعيل : الجيش (٦) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٤ .
(٧) الخبر والشعر فى الأغانى ٢٠ : ٥٦ ـ ساسى ، ومختار الأغانى ٧ : ٢٨٧ .
(٩) فى المختار : « عمر » .

الوزير ابن الزيات مفتوناً به ، فاجتاز عليه راكباً بآلة الحرب ، فقال فيه :

راحَ علينا راكبًا طِرْفَهُ أغيدُ مثل الرّشأ الآنسِ
قد لبسَ القرطقَ واستمسكتْ كفّاه من ذِى بدَنٍ مائسِ
وقُلِّدَ السيف على غُنْجِهِ كأنه فى وقعةِ الدّاحِسِ
أقول لمّا أن بدا مقبلاً : ياليتنى فارسُ ذا الفارسِ !

وقال ابنُ الزقاق :

ومهنّدٍ عَضْبٍ براحةِ أغْيَدِ فى جفنه عضبٌ يَقُدُّ مفاصِلِى[1]
يسطو بذاك وذا فيغدُو قِرْنُهُ بهما صريعَ لواحظٍ ومناصِلِ
ماضٍ كلا السّيْفين لكنْ لحظُه أمضى وإلاّ فاسألنّ مَقاتِلِى

وكان لأبى عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسْر[2] ، وكان آيةً فى الجمال ، وكان صالح أخوه يتعشّقه ، فبلغت لأبى عيسى قصةٌ جرت بينهما ، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا بمحافظ ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عِشْقاً ، فقال فيه :

ظنّ من لا كان ظَنّا بحبيبى فحمَـــاهُ[3]
أرصَـد البابَ رقيبيْـ ـن له فاكتنفاهُ
فإذا ما اشتاق قربى ولقـائى منعـــاهُ
جعل الله رقيبيـ ـهِ من السّوء فِداهُ

وقال فيه :

إنّ مَنْ لا يرى وليس لا يرانِى نُصْبَ عينى ممثّلٌ بالأمانِى[4]

(١) ملحق ديوانه : ٢٩٧ .
(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٧ : ٢٢٠ ، وديوانه ١٢١ ، وفى ط : « بشير » .
(٣) الأغانى ٧ : ١٨٧ ، ديوانه ١١٢
(٤) الأغانى ٧ : ١٩٢ ، ديوانه ١٢٢ .

يأبى مَنْ ضميرُه وضميرى أبدا بالمغيبِ يَنْتجِيانِ
نحن شخصانِ إن نظرتَ وروحا ن إذا ما اختبرت ممتزجانِ
فإذا ما هممت بالأمرِ أو هـمّ بشىء بَدَأتُه وبَدَانِي
كان وِفْقًا ما كان منه ومنّى فكأنّى حكيتُه وحَكانِى
خطراتُ النّفوس منّا سواء وسواء تحرُّك الأبدانِ

وجاءه يوما فتحدّث معه ، فأشار لتقبيله ، فقال له بشير : إياك والتعرّض لى وانجُ بنفسك ، وكانت فيه عَرْبدة، فقال فيه حسين :

أيها النّفّاث فى الْعُقَدِ أنا مطويٌّ على الكمَدِ
إنما زخرفْتَ لى خُدَعًا قدحَتْ فى الرُّوح والجسدِ
ما لِأُنسٍ كان مبتذَلاً منك لى بالأمسِ لم يعُدِ (١)
يوم تعطينى وتأخذُها دونَ نَدْمانى يدًا بِيَدِ
ذاك يومٌ كان حاسدُنا فيه معذورًا على الحسَدِ

* * *

ثمّ اسنطقتُه عن اسْمِهِ ، لا لِرغبَةٍ فى عِلْمِهِ ؛ بل لأنظُرَ أينَ فَصَاحتُه من صَبَاحَتِهِ ، وكَيْفَ لَهْجَتُهُ مِنْ بَهْجَتِه ؛ فلمْ يَنْطِقْ بحُلْوةٍ ولا مُرَّةٍ ، ولا فَاهَ فَوْهةَ ابنِ أَمَةٍ ولا حُرَّةٍ . فضربتُ عَنْهُ صفحًا ، وقلتُ له : قُبْحًا لِعيِّك وشُقْحا ، فغارَ فى الضحْكِ

(١) ديوانه ٤٨ الأغانى ٧ : ١٩٢ ، وبعده فى الأغانى والديوان :

هاتِ يا خُدّاعُ واحِـدَةً من كثيرٍ قُلتَه وقـدِى
ليتَ شِعرى بعـد حَلْفِك لِى بوفاء العهْدِ بعـد غـدِ
ما الذى بِالله صَـيّره بعـد قُرْبٍ فى مدى الأبدِ

وأنجد ، ثمَّ أنغضَ رأسَهُ إلَيّ وأنشد :

يا مَنْ تَلهّبَ غيظُهُ إذْ لم أَبُحْ
باسْمِي له ، ما هكذَا مَنْ يُنْصِفُ
إنْ كانَ لا يُرْضيكَ إلاَّ كَشْفُهُ
فأصِخْ لَهُ ، أنَا يوسفٌ أنا يوسفُ
ولَقدْ كشفْتُ لَكَ الغِطاءَ فإن تكُنْ
فَطِنًا عَرَفْتَ وما إخالُكَ تعرِفُ

قال : فسَرَّى عَتْبي بشِعْرِه ، واستبَى لُبِّي بسحْرِه ؛ حتَّى شُدِهْتُ عن التحقيق ، وأُنْسِيتُ قِصَّةَ يوسفَ الصِّدِّيق ؛ ولم يَكُنْ لِي هَمٌّ إلاَّ مساومَةَ مَوْلاَه فيه ، واستطْلاَعَ طِلْعَ الثَّمَنِ لأُوَفِّيه . وكنتُ أحسِبُ أنَّهُ سيَنْظُرَ شَزْرًا إليّ ، ويُغْلِي السِّيمَةَ عَلَيَّ ؛ فما حَلَّق إليّ حيثُ حَلّقْتُ ، ولا اعْتَلَقَ بما به اعْتَلَقْت ؛ بل قال : إنَّ الغلام إذا نَزُرَ ثمنه ، وخَفَّتْ مُؤَنُه ، تَبرَّكَ بِهِ مولاه ، والْتَحفَ عَلَيْهِ هَواه ، وإنِّي لأوثِرُ تحبيبَ هَذَا الغلامِ إليك ، بأن أخفِّفَ ثمنَه عَلَيْك ، فزِنْ مائتي درهمٍ إن شيتَ ، واشكُرْ لي ما حييتُ . فنَقدتُه المبْلَغَ في الحال ، كما يُنقَدُ في الرَّخيصِ الحلال ، ولم يَخْطرْ لي ببالٍ ، أنَّ كُلَّ مُرْخَصٍ غال .

* * *

قوله : استنطقته ، أي سألته أن ينطق . صَبَاحته : حُسْنه . لهجته : لفظه ، وأصلها طرف اللسان ، فكنى بها عن حلاوته . بهجته : حسنه ونضارته ،

وأصلها حسن اللون . لم ينطق بحلْوةٍ ولا مرّةٍ ، أى بكلمة جيدة ولا رديئة . فَاهَ : نطق . ضربتُ عنه : أعرضت عنه . صفحاً ، أى أوليته صفحةوجهى، وهى جانبه . شُقْحاً ، إتباع لقبح ، وقيل: هى من شَقَح البُسْر ، إذا تغيّرت خضرته بحمرة أو صفرة ، وهو أقبح ما يكون فى رأى العين ، وقيل : هو من شَقَحْتُ العود إذا كسرتَه ، وقال : هو من أشقاح الكلاب ، وهى أدبارها ، ويقال : قُبحا وشُقحا بضم أولهما وفتحه . غارَ : أتى الغوْر ، وهو المنخفض من الأرض. أنجد : أتى نجداً ، ومعناه بالغ فى الضحك وذهب فى جهاته . أنغض رأسه ، أى حرّكه ؛ كأنه يهدّد ويستخفّ به . تلهّب : اشتعل . أبُخْ : أتكلم . أصِخْ : استمع . أنا يوسف ، أى أنا حرّمثل يوسف صلوات الله عليه ، إذْ باعَه إخوته . سرَى عَتْبى : أزال لومى استبى لبّى : أى تملّك عقلى بسِحْره وحلاوةِ كلامه . شُدِهت: تحيّرت ، وهو مقلوب دهشت. التحقيق : التمييز ، وهذا كما قال الشاعر:

والله ما فتئتْ نفسى محاسنُه إلاّ وقد سحرتْ ألفاظُه أُذنى
ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مللاً كأنه كلّ شىء مرتَضًى حسَنِ

استطلاع طلعه : استخبار خبره ، والسؤال عَنْ قدره . لأوَفِّيَه : لأعطيَه كاملًا وافياً . شزرًا : نظر فيه إعراض . التسيمة : السَّوْم ، وهو السؤال عن الثمن . ما حَلّق إلىّ حيثُ حلّقْت ، أى ما دار إلىّ حيث دُرْت ، أى ما كان عنده شىء مما ظننتُ به من طلبه سوْماً غالياً . نَزُر:قلّ. مُؤَنه : لوازمه ومايحتاج إليه . تبرّك : رآهمباركا ، والبركة: الكثْرة والسعة . التحف : انضمّ . هواه : حبّه . أوثر : أفضّل .

* * *

فَلَمّا تحقّقَتِ الصّفقة ، وحقّتِ الفُرْقة ، هَمَلتْ عَيْنَا الغلام، ولا هُمُولَ دَمْعِ الغمام ، ثم أقبل على صاحبه وقال بَ:

لحاكَ اللهُ هَلْ مثلى يباعُ لكيما تشبَعَ الكِرشُ الجياع
وهل فى شِرعَةِ الإنصافِ أَنِّى أَكُلَّفُ خُطَّةً لا تُستطاعُ
وأَنْ أُبْلَى برَوْعٍ بعد رَوْعٍ ومِثلى حينَ يُبْلَى لا يُرَاعُ
أَمَا جَرَّبْتَنِي فخَبِرْتَ مِنِّى نَصَائحَ لم يمازجْهَا خِدَاعُ
وكم أَرْصَدْتَنِي شَرَكًا لصَيدٍ فعدتُ وفى حبائِلِكَ السِّبَاعُ
وَلُمْتَ بِىَ المصاعِبَ فاستَقَادتْ
مطاوِعةً وكان بِهَا امتنــاعُ

* * *

تحقّقت الصفقة : تمّ البيع . هَمَلت : سالَتْ . الغَمام : السحاب لحاه الله : لعنه وأبعده ، ولحيت الرجل : لمتُه ، وأصله من لحوْت العود ألحوه ولحيته ألحاه ، إذا قشرته ، وأنشد ابن الأعرابىّ فى نوادره :

لَحَوْتُ شَمَاساً كما تُلحَى العصا سبًّا لو انّ السبّ يُدْمِى لَدَمِى[1]

ويقال : لاحَاه ملاحاة ولحًا ، أصلها المبالغة ، ثم كثرت حتى جُعلت كلّ ممانعة ومدافعة ملاحاة . الكِرش : العيال ، وكرش الرجل عيالُهُ وصغار ولده ، ويقال فى المعيل : عليه كِرش منثورة ، وإذا أكثرت المرأة أولادَها قيل : نثرنَ كَرِشَها ، وقد قدّم أن صبيته جوّع . الشِّرعة : الطريق . والخطّة ، مثل القصة : الأمر يقع بين القوم . أُبلَى : أمتحَن . الرّوع : الفزع ، لأنه يصيب الرّوْع وهو القلب . يمازجها : يخالطها . أرصدتنى : جعلتنى رصداً ، والرصد : مَنْ يرقبك وأنت لا تعلم فإذا جئتَه هجم عليك . والشَّرَك : آلة الصيد . حبائلى : شبا كى نطت : علقت . المصاعب : الأمور الشاقّة . استقادت : انقادت .

(١) البيت فى اللسان ـ لحا . وفى ط : لحيت » وما أثبته من اللسان .

وأىُّ كريهةٍ لَمْ أُبْلِ فيها وغُنْمٍ لم يكُنْ لِي فيه باعُ
وما أبْدَتْ لِيَ الأيامُ جُرْمًا فيُكْشفَ فى مصارَمتِى القناعُ
ولم تعثر ـ بحمد الله ـ مِنِّى على عَيبٍ يُكَتَّمُ أو يُذَاعُ
فأنَّى ساغَ عِندكَ نبذُ عَهْدِى كما نَبذتْ بُرايَتَها الصَّناعُ
ولِمْ سَمَحَتْ قَرونُكَ بامتهانِى
وأنْ أُشْرَى كما يُشْرَى المتاعُ
وهَلاَّ صُنْتَ عِرْضِى عنه صَوْنِى
حَدِيثَكَ يوم جَدَّ بنا الْوَدَاعُ
وقلت لكن يُسَاوِمَ فىّ هذا سَكابٍ فما يُعارُ ولا يباعُ
فما أَنا دُونَ ذاكَ الطِّرفَ لكنْ
طباعُكَ فوقَهَا تِلْكَ الطِّباعُ
على أنّى سأُنشِدُ حين بَيْعِى أضاعُونِي وأىّ فتًى أضاعُوا

* * *

أبل: أبالغ وأجهد نفسى فيه. غُنْم: غنيمة. جُرْم: ذنب. مصارمتى: مقاطعتى، وكشفت فى الأمر القناع، إذا جاهدت فيه وبالغت. تعثّر: تطلع. يكتّم: يستر. يذاع: يفشى و«بحمد الله» فى البيت، وقعت اعتراضا بين العامل والمعمول، كما وقعت فى التاسعة والأربعين اعتراضاً بين المبتدأ وخبره فى قوله: «وأنت ـ بحمد الله ـ ولىّ عهدى» وتعلّقها بمحذوف تقديره: أبتدئ بحمد الله، أو أفتتح بحمد الله الذى خلّصنى من عيب يُغْتَرَى عليه، أو الذى جعلك ولىّ عهدى، ومنه: سبحان الله وبحمده، معناه أنزّه الله وابتدئ بحمده، أو أفتتح بحمده، ودخلت الواو هنا لغير معنى العطف، ألا ترى أنّك لو قلت: سبحان الله وحمده، لكان المعنى:

أسبحه تسبيحًا وأحمده حمدًا ، هكذا يقتضى ماجاء من المصادر منصوبًا فى هذا الباب ، وفى قولنا : وبحمده لا يكون المعنى ماتقدم فى المنصوب ، ولكن الباء آذنت بمعنى ابتدأت ، أو أبدأ بحمد الله ، كأنك قلت : حمدت الله على إلهامه إياىَ تسبيحه ، وتأمّل قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قوله ساغ : أى سهل . نبذ : ترك . البُراية : مايتساقط من العود إذا نُجِر ، ومن القلم إذا بُرِى ، وكذا يأتى فى مثل البُرَادة والنُّحاتة ونحوها . الصَّنَاع : الحاذقة بالصّنعة ، والرجل صَنَع بغير ألف . قَرونك : نفسه . سمحتْ : جادت . أشرَى : أباع . عنه ، أى عن البيع . صونى حديثك ، أى صيانتى للحديث الذى أحدّثت من بيعى وأنا حرّ . يوم جَدّ بَنا الودَاع ، أى فى هذه الساعة التى تريد أن تودّعنى فيها . سكَاب : اسم فرس لرجل من العرب من بنى تميم ، سأله بعض الملوك أن يبيعَها منه ، فأبى عليه وقال :

أبيتَ اللّعنَ إن سَكَابِ عِلْقٌ كريمٌ لا يُعَار ولا يباعُ[1]
مقَدّاة مكرّمة علينا يُجاع لها العِيال ولانجاعُ

الطَّرف : الفرس الكريم ، يقول : لست أنا دون الفرس ، لكن طباع مالكه أفضل من طباعك ، حيث كان يجيع عياله ويشبعه ، ولم يهنه بالبيع كما أهنتنى به .

[ذكر العرْجى وإيراد بعض شعره]

وعَجُز البيت الأخير صدر بيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ، وهو العرْجِىّ ، سُمِّىّ بذلك لأنه وُلد بالعَرْج[2] من مكة ، وقيل : بل كان له بها مال ، وكان يُكثر الاختلافَ إليه ، فنُسب إليه . يكنى أباعمرو ، وهو شاعر

(١) البيت الأول فى اللسان ، والصحاح وتاج العروس ـ سكب .
(٢) ياقوت : العرج : قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .

مطبوع بالغزل مجيد ويشبّه فى غَزَلِه ومقصِدِه بعمر بن أبى ربيعة ، وكان يهوَى جَيْداء أم إبراهيم بن هشام المخزومى، ولها يقول :

أبصرتُ وجهاً لها فى جِيده تَلَعٌ ... تحتَ العقود وفى القُرْطين تَشْهيرُ (١)
وجهٌ تحيّر فيه الماء فى بَشَرٍ ... صافٍ له حين أبدته لنا نورُ

ولها يقول :

إلى جَيْداء قد بَعثُوا رسولاً ... ليخبِرَها فلاَ صَحِبَ الرَّسولُ (٢)
كأنّ العام ليس بعام حجٍّ ... تغيَّرت المواسمُ والشُّكُولُ

ولها يقول :

عوجى علينا ربّةَ الهَوْدَجِ ... إنك إن لا تَفْعَلى تحرَجِى (٣)
فالحجّ إن حَجَّتْ وماذا منًى ... وأهله إنْ هى لم تحجج !
فما استطاعت غير أن أومأتْ ... نحوى بعينىْ شادنٍ أدْعَجِ

وقال أيضاً :

بانَا بأنعم ليــلةٍ حتّى بَدَا ... صبح يلوّح كالأغرِّ الأشقرَ (٤)
فتلازَما عنـد الفراق صبابةً ... أخْذَ الغريم بفضْل ثوب المعسِرِ

فلمّا شاع نسيبُه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز ، بسبب طَلِبة عليه ، فضربه بالسياط وألقى الزّيتَ على رأسه ، وأوقفه للناس فى الشمس ، حتى غُشِىَ عليه ، وسجنه بضع سنين حتى مات فى سجنه ، فقال فى السجن :

أضاعونى وأىّ فَتًى أضاعُوا ... ليوم كريهةٍ وسِـدادِ ثغْرِ (٥)

---

(١) ديوانه ١٠٥ ، وفيه : « تشمير » .
(٢) ديوانه ١٩٠ ، الأغانى ١ : ٣٩٧ . وفيه: « ليحزنها »
(٣) ديوانه ١٧ ، الأغانى ١ : ٤٠٧ .
(٤) الأغانى ١ : ٣٩٧ ، الديوان ١٧٨
(٥) الأغانى ١ : ٤١٣ ، ديوانه ٣٤٥

وخلّوني ومعترَكَ المنايا وقد شرعتْ أسنّتُهم لنحرِي
كأنّي لم أكنْ فيهم وسيطاً ولم تكُ نسبتي في آل عمرو
أُجرَّر في المجامع كلّ يوم فيالله مظلمتي وقَسْرِي !
عسىَ الملك المجيب لمن دعاه ينجّيني ويعلم كيف شكري
فأجزِي بالكرامة أهلَ ودّي وأجزِي بالعَداوة أهل وِتري

فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، قبض على محمد بن هشام وأخيه إبراهيم ودعا لهما بالسّياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة! قال: وأىّ قرابة بيني وبينك ؟ قال : فأسألك بصهر عبد الملك ! فقال : لم تحفظه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يُضْرب قرشيٌّ إلا في حدٍّ ، فقال: فني حدّ أضربُك وقَوَدٍ ، قال : وماذاك ؟ قال : أنت أوّلُ من سَنّ ذلك على العَرْجىّ وهو ابن عمى وابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فما رعيت [حَقّ][1] جَدّه ولا نسبَه بهشام من قِبَل أمّه ، اضربْهما[2] ياغلامُ ، فضربهما ضرباً مبرِّحًا ، وأثقلا بالحديد ووجّه بهما إلى يوسف بن عمر ، وأمره بتعذيبهما ، فضربهما حتى ماتا .

وغنى إسحاق الموصلى الرشيدَ قوله :

* أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا *

فسأل عن سبب هذا الشعر ، فأخبره بحديث العرْجى ، قال إسحاق : فرأيته يتغيّظ ، فلما أخبرته بما فُعل بابنىْ هشام ، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن ، ثم قال: ياإسحاق ، لولا ماحدّثتنى به من فعل الوليد ، لما تركت أحداً من أماثل[3] بنى مخزوم إلا قتلتُه بالعرْجىّ .

ومن جيدّ شعر العَرْجى :

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرٌ لذنب جفوْنى، أم جفوْنى تجرّمَا[4]

(١) من الأغانى (٢) الأغانى : « اضرب ياغلام »
(٣) كذا فى الأغانى ، وفى ط : « أمثال » (٤) ديوانه ٣٦ ، وفيه : « تعرما » .

فإن يكُ من ذنبٍ[1] ففي ذاك حكمهم ... وحسب امرئ في حقه[2] أن يُحَكَّما
كمثل شهاب النار في كف قابسٍ[3] ... إذا الريح هبَّتْ وهو كابٍ أضرما

ومن جيده :

أخبرتُ أنّك قلت نقتله ... لا تفعلنّ ، فدتكمُ نفسي[4]
والله لا آتي لكم سَخَطًا ... حتى أغيّب في ثَرَى رمسي
والله لا أنسى تطوّفها ... تهتزّ بين كواعب خمس
كالبدر صُورتها إذا انتقبت ... وإذا سفَرت فأنت كالشمس

ومنه :

حُورٌ بعثْنَ رسولاً في ملاطفة ... ثَبْتًا إذا أسقط النَّسّاءةُ الوَهِمُ[5]
فجئت أمشي على هولٍ أجشّمه ... تجشُّمُ المرء هَوْلاً في الهوى كَرَمُ
أمشي كما حرّكتْ ريحٌ يمانيةٌ ... غصنًا من البانِ رطْبًا طَلَّهُ الرَّهَمُ[6]
حتى جلست إزاءَ البَيْت مكتتمًا[7] ... وطالبُ الحاج تحت الليل يكتتم
فبت أسقَى بأكواسٍ أعَلُّ بها ... من باردٍ طاب منه الطّعم والنَّسَمُ

وفي معنى قوله : أمشي كما حرّكت . . البيت يقول ابن دعبل :

قالتْ لقد أعييتنا حُجَّةً ... فأتِ إذا ما هجَعَ السَّامِرُ[8]

---

(١) الديوان : « في ذنبي » .
(٢) الديوان : في « حقنا » .
(٣) كذا في الديوان ، وفي ط : « فارس » (٤) ديوانه ١٤٨ وفيه : قلت : نهجره .
(٥) ديوانه ٢ ، وفيه : « ثقفا »
(٦) الديوان : « طلة الرهم » . والرهم . المطر الخفيف .
(٧) الديوان :

* لما بلغتُ إزاء الباب مكتتما *

(٨) كذا في الأصول ، والبيت الثاني ينسب إلى عمر بن أبي ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٠

واسْقُطْ علينا كسُقوط النَّدَى ليـــلة لاناهِ ولا آمِرُ

وقال الواثق :

قالت إذا الليل دَجَا فأتِنا فجئتُهـــا حين دجا الليلُ
خفِّي وطء الرِّجل من حارسٍ ولو دنا حـــلّ به الويلُ

ومن ظَرْف العرجيّ ،أنه وعدهوى له أن تزوره فى منتزهٍ ،فجاءته على أتان ومعها جارية لها ، وجاء العرْجيّ على عَيْرٍ ومعه غلام ، فواقعها العرجيّ ، ثم خرج فرأى الغلام يواقع الجارية والعَير على الأتان ،فلما نظر الحال قال : هذا يوم غاب عُذّالُه .

* * *

[فصل فى التضمين]

ويسمَّى أخذ الحريريّ شطر بيت العرْجيّ التضمين ، وليس بسرقة . والتضمينُ يكون فى بيت وفى شطر بيت ، والشُّعراء تتولَّع به كثيراً ، وهو من صنعة البديع ، فمن الثانى قول الأخطل :

ولقدْ سما للخرّميّ فلم تقلْ بعد الوفى لـكن تضايقَ مقدَمِى[1]

ومثله قول الآخر :

وجُزْتُ عـــلى باب الأمير كأنّنى
قفانَبْكِ من ذِكْرى حبيب ومَنْزِلِ

ومن تضمين بيت بكماله قول الحسن بن هانئ :

إنّى عجبْت وفى الأيام معتبَرٌ والدّهر يأتى بألوان الأعاجيبِ

(١) البيت فى العمدة ٢٥ : ٧٨ والبديع لابن المعتز ١١٤ ، ونسبه إلى الأخيطل ، ولم أجده في ديوان الأخطل .

من صاحبٍ كان دنياى وآخرتى ... عدًا علىّ جِهارًا عَدْوَةَ الذِّيبِ
قد كان لى مثلٌ لو كنتُ أعقِلُه ... من رأى غالب أمرٍ غير مغلوبِ
لاتَمْدَحنَّ امرأً حتى تجرِّبَهُ ... ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

فضمّن هذا البيت .

قال ابن حجاج :

قد قلت لما أنْ رجعتُ مُوَلِّيًا ... ومعِى مدَابيرٌ من الكتّابِ[1]
نحن الذّين لهم يقال وكلّنا ... فَلّ العصا وطريدة الحجاب
قومٌ إذا قصدوا الملوك لمطلبٍ ... نُتِفتْ شواربُهمْ على الأبواب

وقال ابن رشيق : سألنى بعض أصحابى أن أضمّن له قول الشاعر :

فإن فخرتَ بآباء لهمْ شرفٌ ... قلنا صدقت،ولكن بئسَ ماوَلَدُوا[2]

ولا أزيد على بيت واحد ، فقلت :

أصبحت من جملة الأشراف إن ذُكِرُوا
كواحد الآس لايزكُو له عــدَدُ

والتضمين كثير .

* * *

[خبر النضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت العرْجىّ :

* أضاعونى وأىّ فتًى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل،قال:[3] كنتُ أدخل على المأمون فى مَمَرِه فدخلتُ

(١) يتيمة الدهر٣ : ٧٩. (٢) التنف ٢٤
(٣) نزهة الألباء ٨٥ــ ٨٧ ، درة الغواص ٦٤ معجم الأدباء ١٩ : ٢٣٩

ذات ليلةٍ وعلىّ أطمار أخلاق ، فقال : يانَضْر ، ماهذا التقشّف ! تدخل على أمير المؤمنين فى هذه الخُلْقان ؟ فقلت : أنا شيْخٌ ضعيف ، وحَرّ مَرْوَ شديد ، فأتبرّد بهذه الخُلْقان ، قال : لا ، ولـكنك قشِف ، فيُحمَل منك هذا على التقشف . ثم أجرينا الحديث ، فقال : حدّثنا هشيم ، عن مجاهد ، عن الشعبىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا تزوج الرجل المرأةَ لدينها ولجمالها وكمالها ، كان فيها سَدادٌ من عَوَز » فأورده بفتح السين ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، حدّثنا عوف بن أبى جَميلة الأعرابىّ ، عن الحسن عن علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرّجل المرأة لدينها ولجمالها وكمالها كان فيها سِدادٌ من عوز » ، وكان المأمون متـكئا فاستوى جالسا ، وقال : كيف قلت يانضر « سِداد » ؟ قلت: سِداد لأنّ « السّداد » هنا لحن، قال: أوتلحّننى! قلت: إنما لحنَ هشيم ـ وكان لحّانة ـ فتبع أمير المؤمنين لفظَه ، فقال: فما الفرق بين السّداد والسِّداد؟ قلت : السّداد القصد فى الدين والسبيل والسِّداد بالـكسر البلغة فى الشىء ، وكلّ ماسددتَ به شيئا فهو سِداد ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم هذا العرْجى من ولد عثمان ، يقول :

أضاعونى وأىّ فتىً أضاعُوا ليوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ

ثم أطرق مليًّا ، وقال: قبّح الله من لا أدب له ! ثم تجارينا الحديث ، فقال: كيف روايتك للشعر؟ قلت: قد رويت الـكثير منه ، قال: فأنشدنى أحسنَ ماقالته العرب فى الحِلْم فأنشدته :

إذا كان دُونى مَنْ بُليتُ بجهله
أبيْتُ لنفسى أن أقابل بالجهلِ
وإن كان مثلى فى محلّ من العلا هويت إذاً حلْمًا وصفحًا عن المثلِ

وإن كنتُ أدنى منه فى الفَضْل والحِجا رأيتُ له حقَّ التَّقــدّم والفضلِ

فقال : ما أحسن ما قال ! فأنشدْنى أحسن ما قالته العرب فى الحزم ؟ فأنشدته :

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عُدّة لِمَا أنت باغيه وعونًا على الدَّهْرِ
فإن نلتَ أمرًا نِلْتَه عن عزيمةٍ وإن قصّرت عنه الحقوق فمن عُذْرِ

قال : فما أحسن ما قال ! فأنشِدْنى أحسنَ ما قالته العرب فى إصلاح العدوّ حتى يكون صديقًا ، فأنشَدته :

وذِى غيلة ســـاءلتُه فقهرتُه فأوقرته منّى بعبء التحمُّلِ
ومَنْ لا يدافع سيئات عــدوِّه بإحسانه لم يأخذ الطَّول من عَلِ
ولم أر فى الأشياء أسرعَ مهلكًا لضغنٍ قديم مِنْ ودادٍ معجّلِ

فقال : ما أحسن ما قال ! فأنشدنى أحسن ما قالته العرب فى السّكوت فأنشدته :

إنى ليهجرُنى الصديق تجنّبًا فأريه أنّ لهجرِه أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريْتُه فيكون تركى للعتاب عتابا
وإذا بليتُ بجاهلٍ متحكّمٍ يجد المحال من الأمور صَوابا
أوليتُه منّى السكوتَ وربّما كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال: ما أحسن ما قال! ثم قال: ما مالُك يا نضر ؟ قلت: أريضَةٌ بمرو الرّوذ أتصابها[1] وأتمزّزها ، قال : أفلا نفيدك مالاً معها ؟ قلت : إن رأى ذلك أمير المؤمنين ، فإنى لذلك لمحتاج .

فأخذ القرطاس وكتب وأنا لا أدرى ما يكتب ، ثم قال : كيف تأمر إذا

(١) اتصابها ، أى أشرب صبابتها .

أردت أن تُتْرب الكتاب، قلت : يا غلام أتْرِب الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت : مترَب ، قال : فمن السَّحاة ، قلت : يا غلام اسحُ الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت: مسحَى[1] ، قال : فمن الطين ، قلت: يا غلام طِنِ الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت :مَطين ومُطان ، فقال: هذه أحسن من الأولى ، ثم قال: ياغلام أتربه واسحه وطِنْه . ثم صلّى بنا العشاء، ثم قال لغلامه: امض معه إلى الفَضْل بن سهل بهذا الكتاب ، فلمّا قرأه قال : بمَ استأهلت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألف درهم ؟ وما سبب ذلك؟ فأخبرته الحديثَ على جهته ، فقال : لحنتَ أميرَ المؤمنين ، فقلت: كلاّ إنما لحن هشيم — وكان لَحّانة — فتبع أميرُ المومنين ألفاظه ، وقد تتبع ألفاظه الفقهاء ورواة الأخبار . فعجّل لي ما في الكتاب ، وأمر لي من عنده بأربعين ألف درهم ، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف استفاده مني .

وهذا الخبر جاء في أخبار النحويين . وذكره الحريري في درّة الغواص بأخصر مما ذكرناه ، ثم قال بإثر الخبر : وقد أذكرني هذا المثل أبياتا أنشدنيها أحد أشياخي رحمهم الله لأبي الهيذام :

لي صديق هو عندي عَوَزْ ... من سداد لا سِداد مِنْ عَوَزْ
وجهُه يذكّرني دار البلى ... كلّما أقبل نحوي وضَمَزْ[2]
وإذا جالسني جرّعني ... غُصص الموت بكَرْبٍ وعَلَزْ[3]
يصف الودّ إذا شاهدني ... وإذا غاب وشَى بي وهَمَزْ
كحمار الشوء يبدي مرحاً ... فإذا سيق إلى الحمل غَمَزْ
ليتني أُعطِيتُ منه بدلاً ... بنصيبي شرّ أولاد المَعِزْ

(١) مجالس العلماء: وه مسحو ».
(٢) ضمز : سكت ولم يتكلم .
(٣) العلز : محركة : القلق والهلع .

قـــد رضينا ببيضةَ فاسدةً عِوَضاً منه إذ البيع نَجَزْ

* * *

[حكاية أبى حنيفة والإسكاف]

وكان لأبى حنيفة رحمه الله جارٌ إسكاف بالكوفة ، يعمل نهاره أجمع ، فإذا أجنّه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك ، فيطبخ اللحم أو يشوى السمك ، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرَته يُنشد :

أضاعُونى وأىّ فتى أضاعُوا ليوم كريهة وسِدَاد ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت ، حتى يغلبَه النوم .

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلّى الليل كلّه ، ويسمع جلبته وإنشاده ، فقد صوته ليالى ، فسأل عنه فقيل له : أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، وهو محبوس ، فصلّى الفجر وركب بغلته ، ومشى فاستأذن على الأمير ، فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكباً ، ولا تَدَعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففُعِل به ذلك ، فوسّع له الأمير مجلسَه ، وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : لى جارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، فتأمر بتخليَته ؟ فقال : نعم ، وكلّ مَنْ أُخِذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا ، ثم أمر بتخليتهم أجمعين . فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف ، فلما أوصله داره ، قال له أبو حنيفة : أتُرانا يا فتى أضعناك ؟ قال : لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق ، ولله علىّ ألاّ أشرب الخمر أبداً ، فتاب ولم يَعُد إلى ما كان عليه[1] .

[من حكايات الجوارى والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع فى المقامات من ظرف الحكايات التى تضمنت بيع

(١) الخبر فى الأغانى ١ : ٤١٤ .